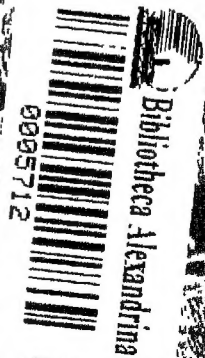


الاقتصاد السياسي للقهر

عد العزيز عر العرب
مهايم / د حلال أمين



الاقتصاد السياسي للقهر
بحث في إمكانيات النهضة في مصر

الاقتصاد السياسي للقهر

بحث في إجهاض إمكانيات النهضة في مصر ، عبد العزيز عز العرب

تقديم : د . جلال أمين

© ، جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ، ١٩٩٠

غلاف : يوسف شاكر

الناشر : دار المستقبل العربي

٤١ شارع بيروت ، مصر الجديدة ، القاهرة

ج ٢٠٠ ع . ، تليفون : ٢٩٠٤٧٢٧

رقم الإيداع : ١٦٤٣ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ٥ - ٠١٠ - ٢٣٩ - ٩٧٧ ISBN

الاقتصاد السياسي للقهر

عبد العزيز عز العرب
تقديم / د . جلال أمين



دار المستقبل العربي

إهداء ...

إلى معلمتى الأولى : جدتى الراحلة ...
أول من علمنى حروف القراءة والإمساك بالقلم ،
وأول من شجعنى على أن أنطق بما أرى وأحس .
وإلى جدى الراحل : الراعى الكريم
الذى أعطانى القدوة دائماً بأن قيمة المرء فى
تواضعه مع الأكثر احتياجاً لا فى استعلائه عليهم
إلى كليهما : سميحة بهنس وحسين رضوان ..
وفاءً واعترافاً بأن لعمل المرء قيمة تتجاوز
اللحظة ، بل والعمر بأسره .

(ديسمبر ١٩٩٠)

إعطِ للفأرة سوطاً
تبتخر كالطغاة
رَحمِ الفأرة مزحومٌ بذئبٍ وبشاةٍ .
(أدونيس — أوراق في الريح — مقطع رقم ٢٩)

عش ألقاً
وابتكر قصيدة ، وامض
زد سعة الأرض .
(أدونيس — أوراق في الريح — مقطع رقم ٥٩)

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر لكل من ساهم في إصدار هذا الكتاب بالجهد أو بالرأى أو بالصقل الأكاديمي أو بأى صورة أخرى من صور التأثير .

وعلى امتداد الأعوام ، أثنائي الكثيرون بما انطبع في كتابتي هنا ، بالرغم من عدم وجود علاقة مباشرة بها ، ويضيق الحيز عن تفصيل ذلك تفصيلاً كاملاً .

لحياة النفوس التى اقتربت لى من ذاتى بصمة ثابتة في إصدارى هذا العمل وفي اختيارات أخرى دقيقة .

وقد أعاننى مباشرة في القيام بهذا العمل وأمدنى الحماسة لمواصلته حتى إتمامه ثم إصداره بهذه الصورة مساندة متعدد الوجوه لكل من الدكتور / جلال أمين ، الذى قرأ البحث بغرض التقييم وأخذت عنوان الكتاب من تقديمه له ، والدكتور / شوقي العقباوى وسميحة أبو المجيد والسيدة / ليل حمدي وكريم درويش وسليمان سعيد وجورج حبيب وديننا جلال .

وقد وفر لى كل من ولدئى ، خالد وبهاء ، زمالة دافئة خلال ساعات طويلة من كتابتي مخطوطة هذا الكتاب وكانا — كمادتهما — مصدر اشراق وثقة وودٍ عظيم . كما قدمت والدتهما بعض العون في بعض المراحل الأخيرة قبل النشر خلال غيائى عن مصر . كذلك لابد من تسجيل عرفائى لجماليات خضر لما بذلته من سند متصل طيلة كتابتى في حدود كل ما تستطيعه .

ومع كون الكتابة حصيلة تأثيرات أطراف عدة تتفاعل في نفس الكاتب ، يظل الكاتب دائماً هو المسئول آخر الأمر عما كتب والمتحمل لما فيه من أخطاء أو شطحات .

تقديم

الاقتصاد السياسى للقهر

بقلم : د . جلال أمين

هذا البحث الممتاز ، هو بحث فيما يمكن أن يسمى « بالاقتصاد السياسى للقهر » . إنه يتكلم عن فترة زمنية محدودة ، هي العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وفى بلد واحد هو مصر ، ولكنه يرسم صورة شيقة للغاية وتنبض بالحياة ، لما يمكن أن يتعرض له مجتمع سىء الحظ من قهر حكامه والطبقة صاحبة السلطة فيه ، وكيف يؤدى ذلك بالضرورة إلى تعطيل النهضة وسوء الحال .

والقهر الذى تعرض له المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ، كما بين هذا البحث بوضوح بالغ ، لم يكن له أول يُعرف أو آخر يُوصف : من نهب مباشر للأموال من جانب السلطة والطبقة المسيطرة من العثمانيين والمماليك ، إلى مصادرة الأموال بغير حق ، إلى تحصيل جزاى للضريبة ، إلى فرض الرسوم على خدمات وهمية ، والإتاوات مقابل فرض الحماية قسراً ، إلى تسعير تحكمى للسلع ، إلى تحايل فى المقاييس والأوزان إلى تلاعب فى قيمة العملة ، إلى اقتضاء الرشاوى ، إلى الاقتراض القسرى من التجار ، إلى احتكار الطبقة الحاكمة لإنتاج سلعة ، كالمح أو النشاط كصيد الأسماك فى الليل ، إلى إرغام الفلاحين على العمل الجبانى فى الأرض على سبيل السخرة ، إلى جلد العاجزين عن دفع ما يطلب منهم الخ .

والبحث يبين أيضا كيف يحدث ، في غمار هذا النهب العام ، أن يقتدى الصغار بالكبار في ممارسة القهر ، فيبين كيف اقتدى العسكر ورجال الجهاز الإدارى بأمراء البلاد « فكانوا يعتدون على أهلها حيناً عند تأخر رواتبهم ، وأحيانا مجرد الرغبة في استخلاص المال مع الإطمئنان إلى ضعف جانب من يغيرون عليهم ، وضعف الحماية المكفولة لهم من ذوى الأمر والنهى في البلاد » .

تذكرت وأنا أقرأ الكتاب ، أن لابن خلدون في مقدمته ، كلاما يؤيد النتيجة التى وصل إليها الباحث تأييدا مطلقا . فرجعت إلى ابن خلدون فوجدت فصلا يصلح عنوانه بلا شك لأن يكون عنوانا لهذا البحث نفسه : « فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران » يبدأه ابن خلدون بقوله :

« اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها ، لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهاباً من أيديهم » .

ها هو ذا باحثنا الشاب يأتى فيعكس كلام ابن خلدون العام والمجرد لحما ودما ، بالوقائع والوثائق المتعلقة بمصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنه يقول لنا فى الواقع كلاما لا يخلو من عبرة لعصور أخرى أقرب إلينا فى الزمن ، فضلا عن أهميته القصوى فى رأى ، من الناحية النظرية . فرغم أن البحث ليس بحثا نظريا فإن ما به من مادة يثير على الفور الكثير من الأفكار حول المطروح علينا من نظريات التنمية والتخلف ، ويبرز جوانب كثيرا ما تتجاهلها كتب التنمية ، باقتصار هذه الكتب تارة على الجوانب الفنية البحتة لعملية التنمية ، وتارة بالتركيز على الاعتبارات الاقتصادية دون غيرها ، وإهمال الجوانب الاجتماعية والقانونية والنفسية ، التى قد تؤدى الى تبديد ثروة أكثر البلاد غنى بالموارد ، وتعطيل نهضة البلاد استعداداً للنهوض .

في الفصل الأخير من البحث ، يشرح الباحث كيف أدى كل هذا القهر إلى تعطيل التنمية والنهضة في مصر ، وإلى ما يسميه الباحث « بتبعية الطبقة المتوسطة للطبقة الحاكمة » ، الأمر الذي جعل من المحتم ، إذا كان لمصر أن تهض ، أن يأتي التغيير « من خلال حكومة مركزية قوية تعمل على تجميع الموارد المنهكة للبلاد ، وتوجيهها في إطار مشروع نهضة محلية عامة » . يقول الباحث هذا عن مصر في أواخر القرن الثامن عشر وقييل صعود محمد علي إلى الحكم . ولا يسع المرء أن يتساءل : ألا يمكن أن يقال نفس الشيء الآن ؟ .

القاهرة ١٧ نوفمبر ١٩٩٠

جلال أمين

تمهيد

كان هذا البحث في الأصل مقمدا الى قسم الاقتصاد السياسى فى جامعة تورونتو بكندا عام ١٩٧٧ فى ختام الدراسة لدرجة الماجستير . وكان المطلوب فيه دراسة موجزة استيفاء لمتطلبات مادة إطلاع منفردة (Reading Course) مدتها الزمنية فصلان دراسيان (أى ثمانية أشهر) . وتم البحث الأصلى بإشراف الأستاذ Andrew Watson (أندرو واطسون) أستاذ التاريخ الاقتصادى بالجامعة . وربما يعلم القارىء أن طبيعة الجهد العلمى المفترض بذله فى مثل هذه الأبحاث أضيق نطاقاً من الجهد المتوقع عند كتابة رسالة علمية موسعة ، وأنه يفترض كذلك أن يكون الناتج البحثى أقل حجماً . وبداخل تلك الحدود ، أخرجنا أصل هذه الدراسة شديدة التواضع .

وبعد حوالى عامين من عودتنا الى القاهرة فى خريف عام ١٩٧٧ ، تم اعداد الفصلين الأخيرين من الدراسة الأصلية للنشر باللغة الانجليزية ضمن عدد من دورية تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة(*) وقد جاء ذلك بمحض الصدفة

A. EzzelArab: «Notes on the Political Economy of Eighteenth Century Egypt» in **Studies in Egyptian Political Economy** ed.H.M.Thompson, Cairo Papers in Social Science, Volume Two, Monograph Three, Cairo: The American University in Cairo, March 1979.

وبمبادرة كريمة من الأستاذ Herbert Thompson (هيربرت طومسون) الذى رأس قسم الاقتصاد والعلوم السياسية بالجامعة خلال دراستنا للدرجة العلمية الأولى هناك .

ثم اهللنا تلك الدراسة تماماً بعد ذلك نتيجة عدة عوامل ، من بينها ضيق الوقت وقصر الجهد نظراً لأن العمل المصرفى الائتماني وما يتصل به من كثرة التنقل وطول التفاوض مع جهات متباينة الأدوار والمصالح استنفذ قدراً كبيراً من ذخيرة الوقت والجهد والتركيز ، ولأن وظائف الأبوة استوعبت كثيراً مما تبقى من الوقت - فتلك الوظيفة في تقديرنا شديدة الجسامة في المرحلة التالية مباشرة لولادة الأبناء وفي مرحلة طفولتهم إذا أردنا البذر لصداقة مبكرة ومتصلة مع الابن أو الابنة وهى مطلب أساسى لاطمئنانهم الى الأب ولفهم الاب لما يعتمل في نفوس أبنائه في مراحل لاحقة من العمر .

ثم لا بد أيضاً من الاعتراف بتشككنا في قيمة هذه الدراسة بالتحديد وازدواجها العلمية وفي كفاءتنا البحثية عموماً ، بل وتشككنا في جدوى وتأثير جهود البحث العلمى المبذولة في مصر في فترة سياسية مظلمة اختفت فيها الحماسة الوطنية وهيمنت قيم المصلحة والكسب الخاص وتحلل ما عداها من قيم تستنفر فينا الاستجابة الفاهمة للمتجردة للتحديات التى تواجه بلادنا والتي يرتبط مصيرنا افراداً ومجتمعاً بها .

وبعد فترة من الانقطاع الطويل عن البحث ، وعقب مناقشات مستفيضة مع عدة أطراف نعتز بها ، وبعد تغير طفيف في ظروفنا ، وابتنا الفرصة لامتحان القيمة والاضافة البحثية لهذه الدراسة بالتحديد والقدرة على الكتابة عموماً ، وكذلك لمحاولة توصيل ثمرة جهدنا العلمى السابق على تواضعها . وساعد عدم انشغالنا في عمل وظيفى لبضعة أسابيع خلال شهرى أغسطس وسبتمبر

الماضيين فتوفرنا على إعادة كتابة البحث الأصلي وإخراجه في الصورة التي نعرضها هنا ، واستمررنا في القيام على ذلك بانتظام ، تباطأ بعد سفرنا لتولى عمل مصرفي جديد في دولة البحرين حتى فرغنا من إعادة القراءة والتصحيح في الأسبوع الأول من ديسمبر خلال عودة وجيزة للقاهرة اضطررنا إليها رحيل والدنا المفاجيء ، فأحاطت ظروف ذلك الحدث المؤثر بالكلمات الأخيرة التي كتبناها هنا .

ونأمل ان نكون قد افلحنا في عرض وتدعيم بعض مايمكن تعميمه من دروس تاريخية ، وعلى الأخص التأكيد على التأثير السلبي للحكم العسكري على النضج والتركيب الطبقي ، فتوظيف الجهاز الحاكم لأداة القهر للسيطرة على إدارة أدوات الإنتاج وعلى توزيع واستخدام الناتج القومي (وهو ما نقصده هنا بالحكم العسكري المطلق دون ان نشترط ارتداء الحكام للسترة العسكرية بصورة سافرة) تتمخض عن توجيه موارد البلاد لخدمة مصالح ضيقة خاصة بالشريحة المسيطرة من الطبقة الحاكمة ، وإلضفاء شرعية مصطنعة على النظام القائم ، يستجديها الحاكم من التقاليد الدينية أو الأعراف الأخرى السائدة ، وبصدق ذلك سواء وجهت الأمور شرذمة عسكرية غير مترابطة – كما حدث آخر ايام الحكم العثماني والتي نلمسها بالتحليل هنا – أو سيطرت عليها حكومة مركزية قوية – مثلما الحال أيام محمد علي التي لانتطرق اليها بالبحث هنا – وفي كل الأحوال يسفر ذلك النظام عن استيعاب فوائض البلاد وتعيئتها إما للدفاع عن البقاء ذاته مثلما كان الحال أيام المماليك ، وحين يتغلب الدافع عاجل المدى على ماعداه فتتهك موارد البلاد بما تتعرض له من امتصاص دون صيانة أو إضافة (أى دون إنفاق استثماري ولاتمو) ، وإما لخدمة رؤية ذاتية أو طموح جامع للحاكم فتعبد موارد البلاد في بناء ادارى واجتماعى دون ما اساس طبقي متين لتلك الرؤية أو ذلك الطموح ، فينهار أساس البناء مع انهيار طموح الحاكم

وتوجهاته .

وهناك محددان لابد من الاعتراف بهما والاعتذار عنهما . فقد قام البحث المحتوى بين دفتي هذا الكتاب على الدراسة الأصلية التي قمنا بها منذ عشر سنوات من حيث الجهد البحثي (أى من حيث نطاق وأوجه استخدام المصادر والبيانات) فلم نعد مرة أخرى الى تلك المصادر للاستزادة منها أو الى مصادر أخرى إضافية ، اللهم إلا إذا استثنينا الرجوع أحياناً للتذكير أو التأكيد أو الاستيضاح من نقطة أو أخرى متضمنة في الدراسة الأصلية ، أو لنقل النص العربى لفقرات اقتطفناها من قبل وظهرت في الدراسة الأصلية مترجمة الى الانجليزية . ومع عدم قيام هذا البحث على جهد بحثى جديد ، الا أننا كنا نجد في خضم الكتابة تفسيراً مغايراً في بعض الأحيان لما قدمناه في بعض أجزاء الدراسة الأصلية ، وقمنا في تلك الأحيان بإعادة كتابة تلك الأجزاء ، وذلك دون اشارة أو تنويه بما أجريناه من تعديل ، باعتبار أننا لانزعم هنا تقديم ترجمة لتلك الدراسة أو الدفاع عن وجهات نظر مثبتة بها .

وقد فضلنا إخراج البحث في الصورة الحالية آملين ان يجد فيه بعض القراء الفائدة ، وان نتعلم نحن من تعليق من يقرأونه وتتسع صدورهم للتعليق عليه من أهل الرأى أو التخصص أو القراء في عمومهم ، على أن ننظر فيما يثيره من انطباع لدى أصحاب الرأى والمهتمين ، ثم نعود اليه مرة أخرى إذا شعرنا أن لجهدنا البحثى قيمة في الاضافة الى المجالات الحيوية المتصلة بوطننا مصر .

نأمل أن نكون قد وفقنا في مس وإثارة بعض ما يستأهل البحث العلمى من نقاط متصلة بتلك الفترة الدقيقة في منعطف التاريخ المصرى ، وأن يكون

بمبحثنا هذا جديراً بالتطلع الى الاندراج ضمن المجهودات العلمية الساعية الى
تأريخ وتفسير علمى للمسار المصرى ، والى توظيف البحث التاريخى كأداة
لفهم الواقع الذى نعاصر أحداثه فى مصر .

كما نأمل أن يكون البحث المتضمن هنا فائحة أبحاث نوالى فيها قراءة
الاقتصاد السياسى للمجتمع المصرى الحديث فى العهود اللاحقة ، والا يحول
دون ذلك ضيق الوقت وضغوط العمل وعلاقات الأسرة وخلاف ذلك من
أمر .

مصر الجديدة فى ديسمبر ١٩٨٨

تقديم الدراسة

أولاً : منهج الدراسة :
الإقتصاد السياسى ودراسة أصول المجتمع المصرى الحديث :

هذا بحث فى الإقتصاد السياسى لمصر فى القرن الثامن عشر . ونقصد بتعبير « الإقتصاد السياسى » منهجاً يقوم على دراسة كيف تفاعلت العوامل الاقتصادية والسياسية السائدة فأفرزت المجتمع المصرى بصورته التى نراها عليه فى الفترة موضع البحث - أو بالأحرى دراسة القوى التى سيطرت على أدوات الإنتاج ومصادر الثروة وما وضعته تلك القوى من نظام سياسى يكفل استمرار هذه السيطرة وتعظيمها ، وما اختلفت به من ممارسات فى ظل ذلك النظام السياسى، ثم ما أفرزته تلك النظم والممارسات من درجة تقدم فى فنون الإنتاج ومن درجة الفهم والابتكار فى التعامل مع الموارد الطبيعية للثروة ، وكذلك ما أفرزته من أوضاع ميزت تركيب وامكانيات وطموحات الطبقات المصرية وقتها : ونستنبط من ذلك ما يعيننا على فهم المسار التاريخى للمجتمع المصرى وقتها، والحركة التاريخية التى تعتمل فيه على وجه العموم منذ ذلك الحين منهج الإقتصاد السياسى ، إذن ، يرى فى المجتمع القائم كلا غير قابل للتجزئة ،

لايستقيم تصنيف أحواله إلى أحوال اقتصادية تارة ، واجتماعية تارة أخرى ، وسياسية تارة ثالثة ، وإفراد دراسات مستقلة لكل من تلك التصنيفات ، فكلها فى الحقيقة أحوال ظاهرية لمجتمع واحد تتفاعل فيما بينها فتؤثر مجتمعة على متانته أو تداعيه . فإذا رأى البعض أن ذلك التصنيف ييسر من دراسة جانب معين من جوانب الحياة فى مجتمع ما فعليه أن الدراسة الناتجة عنه تظل مقتصرة على رصد الظواهر المدروسة فحسب ، وتقف دون تفسير العوامل التى أوجدتها ، أو الأحوال العامة المترتبة عليها ، فتظل أقرب إلى السرد دون تحليل أو تفسير للمسار التاريخى الذى يتخذه مجتمع ما صعوداً أو هبوطاً ، وتفوقاً على المجتمعات المعاصرة أو انكساراً أمامها .

أما سبب اختيارنا للقرن الثامن عشر ، فلأن نهاية ذلك القرن شهدت حدثين تاريخيين متلاحقين يشكّلان منعطفاً فى المسار التاريخى لمصر ، ويصلحان نقطة بدء لدراسة أصول المجتمع المصرى الحديث :

الحدث الأول الاصطدام بالحملة الفرنسية البونابرتية (١٧٩٨ - ١٨٠١) ، و« الاصطدام » هنا يتضمن نزاعاً عسكرياً ومواجهة حضارية شاملة تتفاعل خلاله قوى متصارعة فتستخدم أدوات صراع مأخوذة من أساليب انتاج وتنظيم متفاوتة فى درجة تطورها ، كما تفاوتت فى خلفياتها العامة ، لذلك فملحظات الاصطدام وتداعياتها هى أقرب الى التلخيص التاريخى فى لحظة محددة للاقتصاد السياسى للمجتمعات المتصادمة .

واما الحدث الثانى فصعود محمد على إلى سدة الحكم . واهتمامنا هنا ليس بصعود شخص محمد على فى حد ذاته ، أو بما امتلك من حذى سياسى وميكانيقيلية مكنته من التعرف على القوى التى يمكن أن يتركز إليها فى الصعود الى السلطة من حيث بدأ حياته فى الحماية العثمانية، وإنما قضيتنا البحث فى

الأجواء التي جعلت ذلك الصعود أمراً ممكناً .

ومن ذلك الحدث الثانى جاءت قضية هذا البحث عند بدئنا فيه .

ثانيا : قضية البحث :

إخفاق الطبقة الوسطى المصرية بعد انسحاب الحملة

حين شرعنا فى هذه الدراسة ، كانت قضيتنا البحث فى أسباب اخفاق المجتمع المصرى فى إفراز طبقة أهلية تتبوأ الحكم بعد انسحاب الحملة الفرنسية من مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (عام ١٨٠١) ، وبعد ان انهار الجهاز الحاكم الأجنبى ونظام الحكم العثمانى المملوكى القديم عند قدوم تلك الحملة فى نهاية القرن الثامن عشر (عام ١٧٩٨) .

وقد اتجهنا فى بدء الأمر الى أن نركز بحثنا فى دراسة هيكلى تركيب الطبقة المتوسطة المصرية ودورها الاقتصادى فى ذلك الوقت ، لميلنا الى الاعتقاد أن بعض شرائحها تكون نظرياً أكثر شرائح المجتمع طموحاً الى وضع أسس نظام اجتماعى بديل ، وأن ذلك كان يمكن أن يكون حافزاً لها على انتزاع نظام الحكم لنفسها وقتها ، بدلا من تسليم مقاليد الأمور الى حاكم أجنبى آخر (محمد على) فى أعقاب - بل وبالرغم من - نجاح أقطاب بعض شرائح تلك الطبقة فى الاطاحة بالرمز الهش للحكم العثمانى فى عام ١٨٠٥ . وقد تصورنا أنه يمكن لنا الوقوف على مدى ما كان يتوفر للطبقة المتوسطة المصرية من حوافز الاستقلال بنظام اجتماعى جديد ومن امكانيات لبنائه ، اذا ما قمنا بتحليل الدور الاقتصادى الذى أدته تلك الطبقة فى ظل النظام الاجتماعى القديم والأساس المادى لذلك الدور . كنا نأمل أن يقودنا ذلك التحليل الى الوقوف على أوجه النقص أو الضعف فى تركيب ودور الطبقة المتوسطة المصرية آنذاك التى جعلتها

بادية الاعتماد على الدور الذى أدته فى ظل النظام القديم والاكتفاء به ، وجعلتها أيضاً تبدو بتتصيتها لمحمد على وكأنها تأمل فى تكريس ذلك الدور فى ظل حاكم آملت أن يكون أكثر قدرة على توفير الاستقرار والتخفيف من الغلواء، والفوضى والعشوائية التى اتصفت بها ادارة الجهاز الحاكم للأمور وقت دخول الحملة الفرنسية مصر .

يبد أن المراجع التى توفرت لنا لم تحتو على مادة كافية لنهج سبيل هذا التحليل ، إذ تركزت فى نواح تتعلق بالجهاز الحاكم والادارة الاقتصادية العامة والمجتمع المصرى فى عمومه ، مما اضطرنا الى تعديل كيفية تناولنا لقضية البحث ، فاخترنا ان نتناول بالبحث نظم توزيع الثروة فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ودلالاتها الاقتصادية والاجتماعية ، آملين أن يقودنا ذلك الى فهم أفضل للقضية المثارة فى صدر هذه المقدمة وان تركنا دون نظرة متعمقة فى جلور ودور الطبقة المتوسطة بالتحديد .

ثالثا : فصول الدراسة :

والخطوة الأولى فى دراستنا الموجزة هذه محاولة تحديد الأساس أو بالأحرى التبرير النظرى الذى قامت عليه قواعد توزيع الثروة فى مصر ، وما تضمنه ذلك التبرير من تحديد لحقوق ملكية ثروات البلاد وحقوق الانتفاع بها . ثم ننتقل فى الفصل الثانى الى توضيح كيف انطبع ذلك فى تقسيم ادارى مركزى للمصادر الأساسية للثروة ، وفى نظام ضريبى يقوم على توظيف أدوات القهر لاعادة توزيع الثروة لصالح الطبقة الحاكمة ولصالح معاونيها التنفيذيين . ونقوم فى الفصل الثالث بتحليل جذور واثماط السلوك الاقتصادى لأمرء الممالك ، تلك الشريحة من الطبقة الحاكمة التى سيطرت على أدوات القهر والادارة العامة

ومصادر الغروة في أواخر القرن الثامن عشر ، والتي أثرت أنماط سلوكها على مقدرات البلاد تأثيراً شديداً . ونختتم الدراسة بفصل رابع نحاول فيه تجميع العوامل الرئيسية المتأصلة في كل من نظم توزيع الثروة وسياسات الطبقة الحاكمة لنوضح تأثير الأمرين معاً على أحوال القاعدة المادية للإنتاج في مصر ، سواء منها العناصر الطبيعية أو الطاقات البشرية ، ودلالات ذلك التأثير بالنسبة لآفاق التغيير الاجتماعي في مصر وقتها . ونستنبط من التحليل بعض الاجتهادات التي نوضحها في خاتمة قصيرة نعود فيها الى طرح التساؤل الرئيسى وراء هذا البحث ، ونعنى به أسباب اخفاق المجتمع المصرى في فرز بديل يملأ الفراغ السياسى الذى تركته الحملة الفرنسية عند رحيلها في عام ١٨٠١ م .

وقد قام كثير من تحليلنا للعناصر المطروحة في الفقرة السابقة على هيكل تحليل للايرادات العامة وللانفاق ، أفردنا له ملحقا منفصلا في ختام الدراسة .

رابعا : أوجه قصور رئيسية :

ولا بد لنا من الاعتراف بما نشعر به من أوجه قصور مؤثرة في بحثنا هذا، تجعلنا نرجو أن تعامل نتائجكم كمجرد اجتهادات أولية ، وذلك مع تسليمنا بأن القارئ قد يجد نواحي قصور متعددة أخرى أخفقنا نحن في ادراكها . ولعله يمكن تلخيص تلك الأوجه في ثلاثة اعتبارات رئيسية :

الاعتبار الأول عدم شمول البحث واقتصار نطاق التحليل المتضمن فيه على بعض النقاط المحددة التي نعنى بذكرها في صدر كل فصل من فصوله غالباً أو فيما يلى تلك الفصول من هوامش في أحيان قليلة^(١) . ونحن نشعر بالتأكيد بأن الحاجة قائمة الى مزيد من التحليل لنقاط غير متضمنة هنا ربما يؤدى الى تعديل فيما توصلنا اليه من نتائج واستخلاصات .

والاعتبار الثاني قلة المراجع المستخدمة هنا وعلى الأخص المصادر الأولية واحتياجنا الماس الى مزيد من البحث والتدقيق في وثائق ومستندات ومراجع الفترة موضع الدراسة حتى بالنسبة لتلك المصادر التي استعنا بأجزاء منها ، ونوضح في الفقرات التالية أوجه استخدامنا للمراجع الأساسية التي اعتمدنا عليها . وقد حال دون استفادتنا من بعض المراجع الهامة التي كانت متوفرة في تورونتو ، حيث عملنا في هذا البحث ، عدم المامنا بأى لغة أجنبية سوى الانجليزية ، وبذلك انغلق علينا الاطلاع على مرجعين هامين باللغة الفرنسية هما كتاب وصف مصر Description de L'Egypte الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية فى عدة أجزاء ، وكتاب الأستاذ اندريه ريمون Artisans et Commercants au Caire au XVIII Siecle (الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر)^(٢) ولم تكن المكتبة العربية قد أثريت بعد بالجهد الضخم الذى بذله الأستاذ زهير الشايب فى ترجمة العمل الثانى بأكمله وأجزاء كثيرة من العمل الأول .

أما الاعتبار الثالث فهو اهتمامنا بالبحث فى لحظة تاريخية معينة بصفة أساسية ، ونعنى بها لحظة قدوم الحملة الفرنسية الى مصر ، دون الرجوع الى ماسبق ذلك من تاريخ الا بالقدر الذى شعرنا أنه يمدنا بفهم أساسى لجذور وأصول بعض ما مسته دراستنا من الظواهر السائدة وقتها . ومع ذلك ، فالأرجح أن يكون ذلك الفهم الأساسى غير مكتمل بسبب ضحالة خلفيتنا التاريخية عند الشروع فى هذا البحث ، وإن كنا نرجو الا يكون التوفيق قد جانبنا كلية بسبب ذلك .

خامسا : المراجع الرئيسية :

ولقد استقينا المادة التى تتضمنها دراستنا هذه من أربعة مصادر أولية ومن عمل رئيسى لباحث كبير معاصر .

كان أول مصادرنا تاريخ الجبرقى الصادر بعنوان « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، والذى يعتبر تسجيلاً رئيسياً للفترة موضع الدراسة ، وهى فترة عاصر الجبرقى أحداثها ، وإن احتوى ذلك العمل أيضاً على تسجيل لفترات أسبق ، ذكر الجبرقى أنه جمع المعلومات الخاصة بها من صدور الأقدمين ومن صلب المراجع القديمة .

كان الجبرقى^(٣) أحد أعيان المصريين ، انتقلت اليه أغلب ثروته عن طريق الميراث من أبيه ، فمكثه ذلك من تكريس وقته للاطلاع والدراسة ، كما مكثه من التوفر على تأريخه حين بدأ كتابته . وكان الجبرقى قريباً من الطبقة الحاكمة بفضل خلفيته الدينية ، فتمكن من نقل معلومات وافية عن الأمراء والممالك المختلفين ، وكذلك عن المظاهر التى توشى بما داخل تلك الطبقة من تناقض وصراع . كذلك كان قريباً من علماء الدين والتجار المصريين لانتدائه الى نفس طبقته . ونلاحظ أن كتابة الجبرقى تصبغها خلفيته الدينية وقبوله للعرف السائد فى عمومته ولمارسات النظام الاجتماعى القائم وقتها طالما ظلت فى حدود ذلك العرف ، وهو موقف محافظ سنرى فيما بعد أنه صفة مميزة للطبقة المتوسطة المصرية وقتها . ويتضمن عجائب الآثار سيرة عدد ضخم من الأمراء والعلماء وبعض التجار والأعيان . ولقد تزودنا من هذا المرجع فى اتجاهين أساسيين ، أولهما التعرف على بعض مظاهر الحياة اليومية فى مصر آنذاك بصفة عامة ، وثانيهما الارتكان الى ما به من معلومات عند مناقشة قضايا بعينها مثل دور العلماء ، والاستنزاف المتواصل لموارد البلاد بسبب ما سادها من معارك

ومظاهر اغتصاب ، وكذلك للنظر فى أصول الأمراء وفى السلوك الاقتصادى للحكام ، الى آخر ذلك من أمور يسهل استنباط أغلبها من خلال متابعة السير ومظاهر الحياة اليومية المتضمنة فى ذلك المرجع القيم .

يبد أن هناك نواحى أخرى ضرورية لبحثنا لكن طبيعتها خرجت بها عن نطاق ذلك المرجع ، ومن ضمنها مثلاً الاحتياج الى معلومات متكاملة عن آليات تحصيل وتوزيع الثروة فى مصر ، والى بيانات كاملة عن الضرائب المحصلة فى السنوات المختلفة . وفى تلك النواحى ، حصلنا من عجائب الآثار على مادة متناثرة استخدمناها لمراجعة وتأكيد ما حصلنا عليه من معلومات من مراجع أخرى .

أما المرجع الثانى فكان التقرير المقدم فى ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م إلى استيف (M.R.X. Esteve) ، مدير المالية (المصرية) إبان الحملة الفرنسية ، من حسين أفندى الروزنامجى^(٤) . وقد حقق ذلك التقرير وأعد للنشر مرتين وبلغتين ، المرة الأولى باللغة العربية بواسطة الأستاذ/ شفيق غربال وتلتها مرة ثانية باللغة الانجليزية بواسطة ستانفورد شو (Stanford Shaw) . وقد استخدمنا هنا الترجمة الثانية التى نشرت بعنوان *Egypt in the Age of the French Revolution* والذى يمكن ترجمته الى (مصر فى عصر الثورة الفرنسية) ويختلف تحقيق شو لتلك الوثيقة عن تحقيق غربال فى بعض المواقع وفقاً لما أورده شو من ملاحظات أوضح فيها تلك الاختلافات ضمن هوامش ألحقها بتحقيقه .

ويستمد تقرير حسين أفندى أهميته من اعتبارين رئيسيين ، أولهما كونه يحتوى وصفاً مفصلاً متكاملًا للتنظيم المالى والادارى للخزانة المصرية فى ذلك الوقت ، وثانيهما كون مقدمه واحداً من الشخصيات الرئيسية فى الهرم الادارى

المصري أو بتعبير آخر في البيروقراطية المصرية وقتها مما كان يجعله عليماً ببواطن الأمور بحكم وظيفته . ويأتى تقرير حسين أفندى فى ستة عشر باباً ، وقد استخدمناه كأساس لمناقشة العناصر المتصلة بتنظيم الخزانة المصرية وبسيطرتها على مصادر الثروة فى مصر ، وكذلك العناصر المتصلة باتجاهات توزيع الدخل ، وعناصر أخرى مرتبطة بهيكل النظام الإدارى ، ووجدنا التقرير ذاته والتعليقات الغنية التى ألحقها ستانفورد شو به عظيمى الفائدة فى تلك النواحي كلها . ولكن فائدته قلل من شأنها أمران : الأول نزوع التقرير الى إخفاء بعض السمات الاستغلالية للعلاقات التى يكرسها النظام السائد وقتها وذلك بسبب أن التقرير مقدم من واحد من أركان ذلك النظام المتحيزين له والمستفيدين منه ، وتظهر تلك النزعة أو ذلك التحيز بصفة عامة فى الأجزاء التى تتناول حقوق جباة الضرائب وواجب إطاعة السلطان ، فنجد مقدم التقرير يسوق فى تلك الأجزاء تبريرات اعتذارية للنظام السائد مشوبة بصبغة دينية شديدة . أما الأمر الثانى الذى يقلل من عظم الفائدة المرجعية لذلك التقرير فيتمثل فى كونه لا يمتد إلى بيانات توضح دخل الخزانة وانفاقها الا فى سنوات معدودة ، وذلك فضلاً عن أن المحقق يتشكك فى بعض الأحوال فى دقة بعض الأرقام المتضمنة بالتقرير ، وبؤسس تشككه ذلك على تناقض تلك الأرقام مع تقديرات مختلفة يصل إليها ويبرهن على صحتها باستخدام مراجع أخرى .

أما المرجع الثالث فتقرير وصفى مرفوع من أحمد الجزار ، الباشا أو الوالى على سوريا ، الى الباب العالى (السلطان) تلبية لطلبه . وكان الغرض من التقرير المساعدة فى التخطيط لحملة عسكرية على مصر لقمع أمراء المماليك تأديباً لهم وإعادة لنصيب السلطان من الإيرادات العامة الى ما كان عليه من قبل . وقد تمت تلك الحملة بنجاح فى عام ١٣٠٠ هـ / ١٧٨٦ م ، واتبعت بدقة توصيات ذلك التقرير . وندين بفضل الاستفادة من ذلك التقرير إلى

ستانفورد شو مرة أخرى ، الذى حققه وقدمه مترجماً من اللغة التركية تحت عنوان Ottoman Egypt in the Eighteenth Century ويمكن ترجمة العنوان الى (مصر العثمانية فى القرن الثامن عشر) . ويسعى التقرير الى وصف التركيب الداخلى للممالك وموقف طوائف الشعب المختلفة منهم ، وقد وجدنا ذلك مرجعاً مفيداً فيما يتعلق بتحليل الطبقة الحاكمة من حيث أصولها والأساس المادى لقوتها ودورها الاقتصادى وسيطرتها على موارد البلاد . غير أن التقرير يميل الى مجاملة الباب العالى حين يتناول موقف وشعور طوائف الشعب المختلفة نحو العثمانيين فى مواجهتهم للممالك ، فيصور الحكم العثمانى كحكم محبب يحظى بالسند الشعبى . وربما أدى ذلك العنصر الى اخفاء حقيقة بعض مآخذ الادارة العثمانية لمصر ، وإن كان التقرير يمس بعضها مساً خفيفاً على استحياء . وبينما ينحصر تحيز التقرير فى تناوله لتلك النقاط ، فإنه يظل مفيداً فيما يليق به من أضواء على تركيب الطبقة الحاكمة فى حد ذاتها .

المرجع الرابع كتاب وضعه سونينى (Sonnini) ، وهو أحد الرحالة الذين زاروا مصر فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر . وقد قدم سونينى وصفا لمشاهداته باللغة الفرنسية ، واستخدمنا فى بحثنا هنا الترجمة الانجليزية لذلك العمل والتي نشرت تحت عنوان Travels in Upper and Lower Egypt ، والذى يمكن ترجمته الى (أسفار فى مصر العليا والسفلى) . وترجع أهمية تلك المشاهدات الى كونها وصفاً للأحوال فى مصر من وجهة نظر غربية تختلف فى أمرين على الأقل عن وجهات النظر المحتوية فى المراجع الثلاثة السابقة :

الأمر الأول عدم خضوع صاحبها لنفس النزعة التبيرية للنظام السائد .

والأمر الثانى اطلاع صاحبها ومعايشته لنظم حكم وإدارة مغايرة لتلك السائدة فى مصر ، وكلا الأمرين يجعلان ذلك العمل مختلفاً فى تناوله وأقرب الى

التقييم النقدي من المراجع السابق ذكرها ، خاصة وأن أسفار الكاتب واقامته كانت أغلبها خارج القاهرة مما مكنه من المشاهدة العينية لأحوال الفلاحين والمناطق الريفية بعكس كل المصادر الأخرى المستخدمة هنا . والتي عايشنا إما الأمراء (الجزائر باشا) أو البيروقراطية (حسين أفندي) أو الطبقات الحضرية الموسرة من أهالي مصر (الجبرتي) . ومع وضع ماسبق في الاعتبار ، فلا بد من الإشارة الى مايشوب ذلك العمل من أوجه تقلل من فائدته ، وأهمها أنه يبدو أن كاتبه قضى أغلب وقته سائحا دون معايشة مستقرة أو إختلاط حقيقى بأهل البلاد ، فجاءت بعض أجزاء الكتاب تنقل حكماً انطباعياً سطحياً قائماً على الخبرة الغربية البحتة ، بدلا من أن تأتى كتقييم نقدي من وجهة نظر غربية ولكنها مطلعة وفاهمة للخصائص المميزة للبلاد وأهلها . وربما يكون هذا العمل أقل شأناً من أعمال رحالة آخرين قدموا الى مصر وقتها ، من أمثال سافارى أو قولنى أو براون ممن سمعنا بأعمالهم أو قرأنا عنها دون أن يتوفر لنا الاطلاع عليها .

أما العمل الرئيسى الذى رجعنا اليه لاستقاء أغلب البيانات المحتوية فى بحثنا فكان مؤلف الأستاذ ستانفورد شو المعنون *The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517—1798* والذى يمكن ترجمته الى (التنظيم والتطور المالى والادارى لمصر العثمانية من ١٥١٧ الى ١٧٩٨) ، ذلك العمل الذى يعتبر بكل المقاييس دراسة متعمقة وثرية بما تنقله لنا عن هيكل الخزانة المصرية وأنماط تصرفاتها والذى يشمل موضوعات متنوعة متعلقة بهيكل الإيرادات والمصروفات وبمجدور وتطور سياسات أساسية فى الادارة المالية لمصر على مدى ثلاثة قرون . ويتضمن ذلك العمل فى ملحق مستقل جداول توضح تطور بنود رئيسية عبر مدى زمنى طويل كما يتضمن فى صلب المؤلف ذاته تحليلاً لتلك

البود . ويؤسس شو عمله على بيانات جمعها من الدفاتر (الأراشيف) المصرية والعثمانية ومن تقديرات علماء الحملة الفرنسية .

ولقد استعنا بذلك المرجع في استنباط نموذج تقديرى لهيكل إيرادات الخزانة ومصروفاتها ، ونوضح كيفية ذلك في ملحق منفصل يتنيل هذا البحث ، كما استعنا به في وضع الجسم الأساسى لجداول بحثنا وفي استقاء البيانات المتعلقة بالتقسيم الإدارى لمصادر الثروة في مصر وبآليات تحصيل الأموال من قبل الجهاز الحاكم وتوزيعها . ونلاحظ أنه بالرغم من احتواء مؤلف الأستاذ شو على بيانات واسعة النطاق ، إلا أنه لا يتضمن ميزانيات كاملة إلا لعدد محدود من السنوات في القرن الثامن عشر .

ولا يمكننا المبالغة في تقدير استفادتنا العظيمة من الجهد العلمى الذى بذله ستانفورد شو في عدة مراجع أساسية استخدمناها في بحثنا هذا وكانت ضرورية لانتمائه .

سادسا : الخلاصة :

تسعى هذه الدراسة إلى البحث في جذور اخفاق الطبقة الوسطى المصرية في ملء الفراغ السياسى الناجم عن انهيار الجهاز السياسى الحاكم بعد دخول الحملة الفرنسية مصر في ١٧٩٨ ، ذلك الاخفاق الذى انعكس في حمل أقطاب تلك الطبقة محمد على الى قمة السلطة في عام ١٨٠٥ .

وتقوم الدراسة على منهج تحليلى يستكشف علاقات الثروة والحكم . ونظراً لأننا قد استعنا فيها بعدد محدود من المراجع الرئيسية ولأننا قد حددنا تحديداً ضيقاً نطاق الموضوعات الفرعية التى نتطرق إليها بالبحث واللحظة التاريخية موضع الدراسة ، فإننا نؤكد على شعورنا بالاحتياج الى المزيد من البحث والتحليل في عدة نقاط قد تؤدي الى تعديل نتائج هذا البحث واستخلاصاته .

هوامش التقديم

- (١) نذكر على سبيل المثال أننا عند إعادة قراءتنا لبحثنا الأصلي وتصدينا لاعادة كتابته باللغة العربية في الصورة المتضمنة هنا شعرنا باحتياجنا الى التمهيد في بعض نواحي تطبيق نظام الالتزام في المقاطعات الريفية ، ومدى اقترابه خلال الفترة محل البحث وما سبقها بقليل من حدود الملكية الزراعية الخاصة ، وتأثير ذلك على نضج التمايز والتركيب الطبقي ، وعلى تقدم فنون الانتاج وعلاقة قوى الانتاج ببعضها البعض .
- (٢) ترد في متن الدراسة أجزاء محدودة مسندة الى عمل الأستاذ أندريه ريمون ، وقد رجعنا فيها الى ترجمة شفوية لتلك الأجزاء أملاها علينا الأستاذ أندرو واطسون إبان إشرافه على عملنا في هذا البحث في صورته الأولى في جامعة تورنتو .
- (٣) اعتمد بحثنا الأصلي على طبعة من عجائب الآثار صادرة في ثلاثة أجزاء في ١٩٧٠ عن دار الفارس ببيروت ، وحين استدعى عملنا الحالى العودة الى المرجع في بعض أجزاءه توفرت لدينا طبعة أقدم صادرة في سبعة أجزاء في الفترة من ١٩٥٨ الى ١٩٦٦ بالقاهرة وتتميز تلك الأخيرة بأنها تضم شرحا وتحقيقا لأساتذة من المؤرخين ، شمل فيما شمل ترجمة للجبرتي وتقييما لتأريخه ولل عوامل المؤثرة في كتابته . ومن الأعمال الأخرى التي نسبت الى تقييم تاريخ الجبرتي والتي استعنا بها هنا دراسة الأستاذ محمود الشرقاوى في هذا الشأن (أنظر قائمة المراجع) .
- (٤) « الروزنامي » لقب أطلق على شاغل الوظيفة التي عرفت بذلك الاسم خلال الحكم العثماني ، والتي كان شاغلها بمثابة المدير المعاون للمخزنة المصرية والتالى مباشرة في سلم المسؤولية الادارية عنها لشاغل وظيفة « الدفتردار » (مدير الخزانة) ، ومن غير الواضح لنا بالتحديد متى بدأ ومتى توقف استخدام هذين اللقبين . ويفهم من المراجع المستخدمة هنا أن الروزنامية كانوا يأتون من بين المصريين المنضمين لطائفة الكتبة ، ولذلك فقد سعى العثمانيون الى تجريد وظيفة الدفتردار من أى سلطة تنفيذية حقيقية حين سيطر أمراء المماليك عليها ، فأبقى العثمانيون على تلك الوظيفة الأخيرة شكلا ولكنهم خولوا الروزنامي الصلاحيات التنفيذية في شئون المالية ، ويوحى ستانفورد شو في تعليقه على تقرير حسين أفندي أن ذلك التغيير تم في إطار إصلاح مالى اتخذ في عام ١٦٠٨ وعلى كل الأحوال ، فالأمر الذى يعيننا في هذا المقام أن مسئولية الروزنامي شملت عند قلوب الحملة الفرنسية ثلاث مهام رئيسية : الأولى منها قيد الايرادات والمصروفات بصفة يومية في الدفتر اليومي (الروزنامه) وتقديم

التحصيل الشهري والسوى لها الى كل من الباب العالى والوالى والخزانة المصرية ، والمهمة الثانية الادارة التنفيذية للخزانة العامة مع الاشراف على كافة أقسامها ، أما المهمة الثالثة والأخيرة فكانت رئاسة رابطة أو طائفة الكتبة والاشراف على تدريبهم والقيام بمنح - أو بالأحرى بيع - الوظائف الكتبية الشاغرة الى من يختارهم من طالبها . ونلاحظ هنا أن وظيفة الروزنامى كانت تشتري من الحاكم العثمانى لقاء دفع رسم محدد إليه شأنها شأن المقاطعات التى تباع الى ملتزمين والتى سيأتى تفصيلها فى الفصل الثانى . وبناء على ذلك ، فلا بد أن الروزنامى كان يسدد خراجا سنويا للخزانة المصرية . وشأنه شأن الملتزمين عن المقاطعات ، لم يتقاضى الروزنامى أجراً نظير إدارته للخزانة ، وإنما ترك له تحصيل إيراداته عن طريق بيع الوظائف الى الكتبة وعن طريق ما يتقاضاه من أتعاب ورسوم من أصحاب المصالح مقابل ما يطلبونه من خدمات من المالية المصرية ، ولا بد أن ذلك كان مصدر إيراد الكتبة الآخرين أيضا الذين لم يتقاضوا من الخزانة بدورهم أى أجور عن عملهم (أنظر تعليق ستانفورد شو على كل من تقرير حسين أفندى ص ١٠٧ - ١٠٨ وأحمد باشا الجزار ص ٣٦) .

هنا عن منصب الروزنامى بصفة عامة . أما عن حسين أفندى مقدم التقرير الذى استخدمناه فى هذه الدراسة ، فإن ستانفورد شو يخبرنا أنه كان يشغل منصب الروزنامى وقت تقديم التقرير الى الفرنسيين (تعليق شو على تقرير حسين أفندى ص ١٧٩) ، وأنه تولى ذلك المنصب أيضا فى فترة لاحقة فى عهد محمد على ، وإن كان هناك مرجع آخر يذكر أنه كان وقت الحملة الفرنسية من أفندية الروزنامة فحسب (محمد رفعت رمضان ، ص ٢٦٠ - ٢٦١) . ونجد فى الجبرتي ذكراً لروزنامى باسم حسين أفندى تعرض لابتزازات متكررة من محمد على نتيجة وشاية بعض الكتبة فى الأعوام ١٢٢٣ و ١٢٢٤ و ١٢٢٨ بالتقويم الهجرى ، ومن هنا فمن المحتمل أن يكون الحديث فى الحالتين عن شخص نفس الروزنامى مقدم التقرير . وطبقا لما أورده الجبرتي عن أحداث ثلاثة الأعوام المذكورة ، فقد طوّل الروزنامى بسداد ضرائب متأخرة أثقلت كاهله وأمراضته (أنظر الجبرتي ، تحقيق جواهر وآخرين ، ج ٧ ، ص ٩٦ - ٩٧) .

أما عن التقرير ذاته ، فيفيدنا الباحث الأستاذ محمد رفعت رمضان أن حسين

أفندى قدمه إلى استيف بعد أن أعيت الأخير الحيل في انتزاع تفاصيل الإدارة المالية
ممن اشتركوا مع مقدم التقرير في إدارتها وبعد أن ظل الفرنسيون يحاولون انتزاعها منذ
قدومهم إلى مصر ، فلم يتمكنوا من ذلك إلا من خلال هذا التقرير الذى قدم لهم .

الفصل الأول

السيطرة على الثروة المصرية في القرن الثامن عشر

ظلت السيطرة الفعلية على أدوات الانتاج في مصر متأثرة بنظم الملكية والتوزيع التي وضعها العثمانيون عند غزوهم البلاد في القرن السادس عشر ، وظلت بذرة العلاقات الاجتماعية السائدة متأصلة في تلك النظم . وقد ظل ذلك التأثير قائماً حتى قدوم الحملة الفرنسية ، ثم بعد انسحابها وحتى مطلع حكم محمد علي ، وذلك بالرغم من تعرض البلاد لكثير من التغيرات السياسية خلال تلك الفترة التي قاربت الثلاثة القرون .

أولاً : التبرير النظري :

حق الملكية المطلقة لمصادر الثروة .

تكشف الفقرة التالية التي ترجمناها من تقرير حسين أفندي الروزنامجي الى الحملة الفرنسية عن القاعدة التي تأسس عليها نظام وممارسات توزيع الثروة كما نحاول أن نبينه في الفصول التالية - يقول حسين أفندي .

« كل ما في هذه الممالك ملك خاص للسلطان لكنه لا يبغي مأرباً أو

فائدة [شخصية] من ورائه ، إذ ينظم نفقات المملكة حسب إيراداتها ويحدد حجم الإرسالية السنوية التي تؤول إليه من فائض الإيرادات والتي يحتفظ بها لنفسه «^(١) .

والمبدأ المذكور في الأسطر السابقة يعنى احتكار ملكية كل أدوات الانتاج في البلاد ، الأمر الذى يترتب عليه إدعاء الحق فى الاستيلاء على ثمار انتاجها . كانت الأرض الزراعية والعمل البشرى والموقع التجارى الأدوات الرئيسية للانتاج وقتها^(٢) .

وقد كانت السيطرة على ملكية الأراضي الزراعية تعنى عملياً السيطرة شبه التامة على ثروات البلاد . ففضلاً عن أن النسبة الكبرى من الإيرادات تركزت فى الانتاج الزراعى بصورة مباشرة فقد قامت أغلب الأنشطة الرئيسية الأخرى على الانتاج الزراعى أيضاً^(٣) ، فكأنه كان منشأ رئيسياً لتلك الأنشطة ، فقامت الملاحة والنقل الداخلى على نقل الحاصلات الزراعية من مصر العليا الى القاهرة وبولاق^(٤) ، كما اعتمد كثير من الصناعات الرئيسية على الحاصلات الزراعية كمواد خام . ومعنى ذلك أن جزءاً كبيراً من اجمالى انتاج تلك الأنشطة نشأ خارجها ، وأن القيمة المضافة على مستوى البلاد بأكملها نشأت فى الانتاج الزراعى بصفة أساسية . والدلالة للعملية لذلك الأمر أن السيطرة على الإيرادات الزراعية كانت تعنى السيطرة على المصدر الرئيسى للثروة ، وأن عمق الضريبة المفروضة عليها يعكس عمق الضريبة المفروضة على القيمة المحلية

* نستخدم فى المقتطفات الواردة فى هذه الدراسة بعض العلامات لدلالات محددة كما يلى :

[] تمييز ما وضعنا من إضافات بداخل الجزء المقتطف بغرض التوضيح أو الربط .

/ للدلالة على انتقال المرجع الأصل من صفحة الى مايلها .

.... للدلالة على أجزاء متضمنة فى المرجع الأصل وغير منقولة فى الجزء المقتطف .

المضافة . وسوف تتضح دلالة ذلك أكثر عند مناقشة سيطرة الطبقة الحاكمة على مصادر الثروة وممارستها لإزاءها .

كذلك كان قسم من الأنشطة الاقتصادية يتركز في الخدمات أو الصناعات صغيرة الحجم ، والتي تعتمد على العمل البشرى بصفة أساسية من دون الاحتياج الى رؤوس أموال ضخمة .

وأخيراً ، كانت نسبة أخرى من الثروة تتكون بفضل حركة التجارة الدولية وموقع مصر الجغرافى ، من خلال تجارة الترانزيت .

ثانيا : النصيب الآيل للسلطان

وقد ضمن السلطان لنفسه نصيباً فى ثمار كل الأنشطة الاقتصادية القائمة بمصر حين أسس نظم الادارة والتوزيع على فرضية أنه مالك « كل ما فى هذه الممالك » ، إذ ترتب على تلك الفرضية إعتباره محتكراً للملكية أدوات الانتاج بالبلاد (مناشئ ثروتها) وصاحب الحق الأصلى فى ايراداتها ، ويشمل ذلك كل ما حققته البلاد من ايرادات سواء استخدمت فيه الأدوات الثابتة (الأرض) أو العمل البشرى أو ما حبتها به الطبيعة والجغرافيا من التميز النسبى (الموقع) .

أما الزعم بأن السلطان « لا يبنى مأرباً أو فائدة [شخصية] » من وراء ممالكه فأمر لا يجب أن يؤخذ مأخذ الجد ، فتلك على الأرجح محاولة لتجميل النظام من أحد أقطاب بيروقراطيته. فالهدف النهائى للادارة العثمانية كان دائماً تأمين الارسالية السنوية التى ذكرها حسين أفندى فى قوله المقتطف^(٥). وكانت تلك الارسالية تساوى الفائض من الايرادات بعد الوفاء بالتزامات الخزنة العامة ، وكان ذلك الفائض ينظر اليه باعتبار أنه الربح الشخصى الذى يؤول للسلطان من مملكته الخاصة والذى تقاس كفاءة الادارة على أساس وفائها به

ومقدار حجمه^(٦). وحين تدهور حجم الرسائل الخولة سنوياً من مصر للآستانة نتيجة تعاظم قوى الممالك في مصر ، سعى السلطان إلى أحمد باشا الجزائر وإلى سوريا طالباً منه النصح ، فنصحته في عام ١١٩٩ هـ/١٧٨٥م بتجريد حملة عسكرية لاعادة سيطرته على الإيرادات المستجبة من مصر ، وجاء ذلك النصح في تقرير من جزئين .

تناول الأول منها خطة الغزو العسكرى و تناول الثانى وسائل زيادة إيرادات الخزانة وتكرر فيه التأكيد بأن ما ينتج عن ذلك من زيادة في « الأرباح » يجب أن يحول رأساً إلى الباب العالى^(٧) .

وقد سار تدخل الباب العالى في إدارة الأمور في مصر على هذا المنوال دائماً ، فكان يحدث حين ينقص حجم الرسائل السنوية وكان يهدف إلى استحداث سياسات وإصلاحات تعيد للسلطان نصيبه من الربح إلى ما يبتغيه^(٨) (أنظر الجدول رقم ١) .

وبالإضافة إلى الرسائل السنوية من فائض الإيرادات ، فقد انتفع السلطان بنسبة أخرى من إيرادات الخزانة العامة أنفقت على سد بعض احتياجاته الاستهلاكية ، وظهرت في بند مستقل بعنوان « نفقات على أغراض الباب العالى »^(٩) (أنظر الجداول من رقم ١ إلى رقم ٥) .

وسوف نتطرق في فصول تالية إلى تقديرنا للإيرادات الأخرى التى آلت إلى الطبقة الحاكمة بمجمل شرائحها . ولقد استولت أحياناً بعض الشرائح الأخرى من الطبقة الحاكمة على أجزاء من الإيرادات التى افترضنا أيلولها للسلطان ، ولايغير ذلك سوى من علاقة أطراف الطبقة الحاكمة ببعضها البعض دون أن يغير من سيطرتها على الأدوات الانتاجية للبلاد ومن علاقتها

بطبقات أهلها .

ثالثا : الجهاز الحاكم

كذلك تأسس هيكل النظام السياسى العثمانى^(١٠) فى مصر على أساس سيادة السلطان ومن أجل ضمان استمرار سيطرته وحصوله بالتالى على نصيبه المرام فى الثروة .

فقد عمل العثمانيون على توزيع السلطة المركزية فى مصر بين ثلاثة أطراف رئيسية : الحاكم أو الوالى وأمرء الممالك والقوات العسكرية أو الأوجاقات .

كان الحاكم^(١١) ممثل السلطان ونائبه فى مصر ورمزاً للمصالح العثمانية بها ، وكان السلطان يختاره بنفسه من بين وزرائه ، أما سيطرة الحاكم الفعلية على مقاليد الأمور فكانت تتفاوت من زمن لآخر طبقاً لقوة الامبراطورية العثمانية من ناحية ولتصاعد قوة أمرء الممالك من ناحية أخرى . وكان أمرء الممالك^(١٢) يأتون من أصول أجنبية ، وقد انتظموا فى بيوت مملوكية حكمت مصر قبل العثمانيين ، ثم احتفظوا لأنفسهم بدور رئيسى بعد الغزو العثمانى وأمدوا الاداة الادارية العثمانية بمسؤولين رئيسيين لمناصب ادارية مختلفة . أما الأوجاقات^(١٣) فجاءوا من أصول تركية ومملوكية فى أول الأمر ، لكن بعض رجالها اختلطوا بالمصريين واستوطنوا البلاد تدريجياً ثم وقع أغلبها تحت سيطرة البيوت المملوكية فى القرن الثامن عشر وتحولوا من كيان مستقل الى كيان تابع ، وقد تركزت مسئولياتها فى شئون الدفاع والأمن كما احتفظ رجالها لأنفسهم ببعض المناصب الادارية الصغرى .

وقد أوكلت الوظائف التشريعية والتنفيذية الى ديوانين^(١٤) تألفا من عدد

من الممالك وقادة القوات العسكرية (الأغوات) بصفة رئيسية . وكان الديوان منها يدير الشئون الاقليمية المختلفة من خلال مسئولين يعينون في كافة المستويات في الأقاليم المحلية والقوات العسكرية والجهاز البيروقراطى .

وكان الهدف النظرى للإدارة المصرية تأمين تحصيل الإيرادات من «الولاية» لمصلحة السلطان^(١٥)، وكانت تلك هى الوظيفة الوحيدة الموكولة للجهاز الحاكم والذى استحق أفرادُه بموجِبها نصيباً فى ثروات البلاد^(١٦) .

ولكن هذا الهيكل الإدارى تحول برمته الى أداة سيطر عليها وأدارها أمراء الممالك فى أواخر القرن الثامن عشر كما سنشهد فى الفصول التالية .

رابعا : الخلاصة

ويتضح لنا مما سبق ثلاثة عوامل ميزت النظام الاجتماعى السائد وانعكست فى نظم وعلاقات توزيع الثروة فى مصر فى ذلك الوقت .

العامل الأول اعتبار السلطان محتكراً للملكية كل مصادر الثروة بالبلاد ، وهو المبدأ الذى سيطر بموجبه على تحصيل ثمار تلك الثروات وعلى التصرف فيها كيفما شاء ، اذ كانت كيفية توزيع تلك الثمار فى حد ذاتها ، وارتكناً الى ذلك المبدأ حقاً من حقوق السلطان وامتيازاً خاصاً له ادارهُ من خلال وكلائه فى الجهاز الإدارى فى مصر .

أما العامل الثانى فكان أنه ترتيباً على ملكية السلطان لمصادر الثروة وإدارته لها من خلال جهازه الحاكم فى مصر ، فقد استقرت السيطرة الفعلية على تحصيل ثمار تلك الثروات وتوزيعها فى يد ذلك الجهاز الحاكم فى الولاية ، وذلك ماحدث حين انفرد أمراء الممالك بالسيطرة الفعلية فى أوقات متباعدة من

القرن الثامن عشر ثم صارت لهم الهيمنة الكاملة في اخره .

وقد كفل تركيب الجهاز الحاكم استتباب السيطرة العثمانية على مصر طالما بقي التوازن قائما بين القوى الثلاث المكونة له (الوالى ، أمراء المماليك ، الأغوات) . ونلاحظ أن ذلك التكتيك القائم على التركيز الشديد للسلطة في يد أداة حاكمة ، هى نفسها مكونة من أقطاب متوازنة القوة ، والذي اتبعه العثمانيون بغرض إحكام السيطرة على مصادر الثروة مع استتباب السلطة لهم ، قد أفرز أحيانا أوضاعاً تناقض ذلك الهدف الاستراتيجى المرام ، فكان مصدر تهديد أساسى للسيطرة العثمانية على مصر حين يختل التوازن القائم بين أقطاب السلطة ، ويميل ميزان القوة لصالح إحداها فى أى وقت من الأوقات ، فتفرد بالسلطة المطلقة على ثروات البلاد بمنأى عن التعرض للبطش العثمانى العاجل والمباشر .

كذلك كان العامل الثالث استطرادا منطقياً لمبدأ ملكية السلطان لمصادر الثروة فى الولاية وتلخص فى أن القائمين بحرث تلك المصادر اعتبروا بمثابة قائمين على أملاك السلطان الخاصة ، منحوا حق استغلال تلك الأملاك والاحتفاظ بجزء مما ينتجون نظير تسديدهم لضرائب^(١٧) قرر الجهاز الحاكم مقدارها وكيفية تحصيلها .

وبعد أن عرضنا للمبادئ التى شكلت نظام توزيع الثروة فى مصر تحت الحكم العثمانى ، ننتقل فى الفصول التالية إلى مناقشة أكثر توسعاً لنظام التوزيع فى حد ذاته وللعلاقات المتضمنة فيه .

هوامش الفصل الأول

١ - Repoart from Huseyn Efendi to Esteve in 1801, edited and translated by Stanford Shaw Aad published under the title: **Ottoman Egypt in the age of the french Revolution (1964)**, p. 63.

٢ - فوزى جرجس : دراسات فى تاريخ مصر منذ العصر المملوكى (١٩٥٠) ١٥ ، محمد فهمى لحيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة (١٩٤٤) ٢٥ - ٢٦ .

A.E. Crouchley: **The Economic Development of Modern Egypt (1938)**, 15-16.

٣ - لحيطة ، ٣٤ - ٣٥

Huseyn Efendi, 131-132, Crouchley, 16, 24-27, H.A.R Gibb & H.Bowen: **Islamic Society and the West (1950—1957)**, 1, 297-299.

٤ - لحيطة ، ٤٠ - ٤١

Crouchley, 16, 24—27, Gibb, 1, 299—300, 305, Huseyn . Efendi, 133—134.

٥ - ذلك كان الغرض الرئيسى وراء تقرير أحمد باشا الجزار الى الباب العالى فى ١١٩٩ هـ/ ١٧٨٥ م . (أنظر رقم ٧ أدناه) .

٦ - كأنما كانت البلاد أشبه بكيان تجارى ضخم ، تقاس كفاءة ادارته بما توزعه على المالكين من أرباح . ولم نقل أن تلك الكفاءة تقاس بما تحققه الادارة من زيادة فى القيمة أو الربحية الحقيقية لأصول ذلك الكيان لأن الجهاز الحاكم أهمل ذلك المفهوم تماماً ، بل وضربت ممارساته عرض الحائط بأى استئثار ضرورى للحفاظ على الكفاءة الانتاجية لأدوات الانتاج ، ناهيك عن تنميتها ولتأمل على سبيل المضاهاة فى مفهوم « العوائد الموزعة » من قبل الكيانات التجارية على أصحابها أو المساهمين فيها بعد خصم « التكاليف الجارية » من الإيرادات . لاحظ أننا نخص بالذكر « العوائد الموزعة » لا « العوائد المحتجزة » (أى المستبقاه بالمنشأة بغرض زيادة رأسمالها وتنمية استثماراتها) ، ونخص « التكاليف الجارية » من دون « الانفاق الاستثنائى »

وسوف تتضح دلالة ذلك التخصيص عندما نعود الى طرق تلك الناحية بشيء من الاستفاضة في الفصل الرابع من هذه الدراسة . تأمل هنا أيضا في مفهوم « مسحوبات الشركاء » المطبق في المنشآت التجارية ، وإن كان الفارق أن تلك المسحوبات يفترض في الكيانات التجارية الحديثة أن تتم تصفيتها من مبلغ الأرباح المستحقة للشركاء في آخر المدة .

٧ - Cezzar Ahmed Pasha : The Nizamname(i) Misir, edited & translated by Stanford Shaw under the title Ottoman Egypt in the Eighteenth Century (1962), 36, 40, 44, 48, 49.

٨ - محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٩٦٢) ، ١٦٢ .
Stanford Shaw : The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1790 (1962), 6-10, 283-313, Gibb, I, 233

٩ - Huseyn Efendi, 65-66, 150-152, Shaw, 272-282

١٠ - عبدالرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول (١٩٢٩) ، ١٢ ، ١٨
D.Kimche: "The Political Superstructure of Egypt in the Late Eighteenth Century", Middle East Journal, XXII, 4, 448-462, Huseyn Efendi, 73-84 (footnotes).

١١ - الرافعي ، ٢٦ - ٢٧
Huseyn Efendi, 34-36, 73-78, Cezzar Pasha, 46-48 .

أدى تصاعد نفوذ أمراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر الى سلب والى العثماني أي سلطة حقيقية ، فأصبح مجرد حضور رمزي للسلطان العثماني الذي لم يستعد سلطانه الفعلي على البلاد الا لفترة موجزة في عام ١٧٨٦ م حينما غزت البلاد حملة عثمانية بقيادة القبطان العثماني حسن باشا الذي هزم الأمراء الرئيسيين وأعاد تنظيم المالية العامة ثم غادر مصر في نفس العام بعد أن عين أمراء من الموالين له لتصرف شؤونها ، ثم مالبت أن استرد الأمراء المهزومون سلطانهم بعد رحيله .

١٢ - Cézzar pasha, 28-30, Huseyn Efendi, 80-82,

نتناول بالتحليل في الفصل الثالث انتظام المماليك في بيوت متنافسة تحت إمرة أمراءهم الرئيسيين ، والدلالات الاقتصادية والاجتماعية لذلك التنظيم المملوكي .

استخدم لفظ أوجاقات بمعنى فرق الجيش ، ومفرده أوجاق . وهذا اللفظ يستخدم في التركية أو الفارسية بمعنى النار أو المدخنة أو المدفأة ، ومجازاً بمعنى البيت أو الأسرة أو الدولة أو فرقة من الجيش مؤلفة على نظام خاص ، وذلك طبقاً لما يلاحظه محققو إحدى طبقات تاريخ الجيرى . ويقول السادة المحققون أن تاريخ الجيرى جاء به ذكر عشر فرق للجيش هي الاسباهية (الفرسان) ، والمتفرقة (أصحاب الاقطاعات) ، والفقارية والقاسمية (فرقتان من فرق الممالك الجراكسة) ، والعزب (البحرية) ، والشراكسة (نوع من الممالك) ، والتفكجيان (حملة البنادق أو من يقومون باصلاحها) ، والجاويشية (مرتبة بين الأنباشى والملازم) والانكشارية (العسكر الجديد) ، والجمليان (الفرق الصغيرة قليلة الأهمية) .

(أنظر : عبدالرحمن الجيرى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق وشرح الأستاذة حسن جوهر وعبد الفتاح السرنجاوى والسيد ابراهيم سالم وعمر الدسوقي ، ج ١ ، ١٩٥٨ ، ص ٩٨) .

ويختلف الأستاذ ستانفورد شو في بيانه للفرق العسكرية عن السادة المحققين سالفى الذكر ، إذ يذكر شو أن عدد الفرق العسكرية كان سبع فرق ، ويقول أن كلا من فرق الجمليان (ويسميا Gonulluyan ملاحظاً أن لفظ جمليان كان يستخدم في اللغة الدارجة) والتفكجيان (لاحظ اختلاف التركيب اللفظي عن لفظ تفكجيان المذكور أعلاه) والشراكسة كانت فرق فرسان وأن لفظ الاسباهية كان يطلق على كل منها منفردة وعليها مجتمعة كذلك لايرد ذكر على الإطلاق لأى من فرقتى القاسمية والفقارية ، وربما اعتبرهما جناحين مختلفين بداخل فرقة الشراكسة . ويضيف شو أن سبع الأوجاقات تلك تسمى مجتمعة Eskinciyan (اشكنجيان) أى الفرق العاملة ، وأن الهيكل العسكرى ضم الى جانبها أوجاقا ثامنا للمتقاعدين وسمى بتلك الصفة الأخيرة .

ويتفق المرجعان في أن رئيس الأوجاقات كان يحمل رتبة الأغا (أى السيد أو الرئيس أو القائد أو الوصى) ، ونعرف من شو أيضاً أنه كان هناك لكل أغا كتبخدا (أو نائب) ، وأن الأغا كان يستعين بمشورة مجلس منتخب من بين رجال الأوجاقات وضباطه ، أطلق على رئيسه لقب باش اختيار وتمتع أحياناً بنفوذ يعادل

نفوذ الأغا وكتخذه . كما نتعلم من محققى تاريخ الجيرقى أن لفظ أغوات كان يستخدم للإشارة الى كبار القادة من أى أوجاق .

والنبذة السابقة قد تمددنا بخلفية عامة عن الهيكل الأساسى للفرق العسكرية وتنظيمها الداخلى فى مصر فى العصر العثمانى . أما ما يعنينا ملاحظته هنا فأمران أسهب شو فى تناوله فى تعليقه على تقرير حسين أفندى :

الأول منهما تمايز أدوار تلك الفرق وولائها ، إذ أسست اثنتان منها (المتفرقة والجلويفية) كحرس خاص للوالى العثمانى مسئول عن حمايته وتنفيذ أوامره وتمتع رجالها بنفوذ ومزايا مادية عند انشائهما فاقت ما حصل عليه رجال الفرق الأخرى ، بينما تولت الفرق الثلاث المسماة بالفرسان (الجمليان والتفكجيان والشراكسة) مهام الدفاع والقهر فى الأقاليم المحلية ، وخضعت كلها لحكام تلك الأقاليم وتضمنت مهامها الأساسية المعاونة فى تحصيل الضرائب المحلية وصد غارات البدو على تلك الأقاليم ، أما الفرقتان الباقيتان (العزب والانكشارية) فتولتا مهام حفظ الأمن بالعاصمة والمدن الساحلية الرئيسية وتضمنت تلك المهام اصطحاب وحماية قافلة الحج والقافلة السنوية الى الباب العالى ، ومن هنا فبعض مهامها كانت أيضا دفاعية . وقد انعكس تمايز أدوار تلك الأوجاقات فى اختلاف منابع تكوينها ، فتكون الحرس الخاص للوالى من المماليك التى أعلنت الولاء للعثمانيين فى وقت مبكر بعد الغزو العثمانى لمصر ، وتكونت فرق الفرسان من المماليك اتباع حكم الأقاليم والذين جاء أغلبهم من كبار الأمراء بحلول أواخر القرن الثامن عشر وكانت تلك الفرق أقل الفرق العسكرية أجراً وأكثرها تمرداً ، وتأسست فرقنا الأمن فى الأصل من فرق رئيسية كانت ضمن جيش السلطان سليم الأول .

أما الأمر الثانى الذى يعنينا فملاحظة ميزان القوى النسبية بين تلك الفرق فى أواخر القرن الثامن عشر ، والتى يبدو أنها مالت بشدة لصالح فرقتى الأمن اللتين ظلتا محتفظتين باستقلال نسبى عن والى العثمانى المغلوب على أمره وعن البيوت المملوكية بينما تغفل اتباع الأمراء الرئيسيين بين صفوف الفرق الأخرى التى صارت مصدراً يمد اتباع هؤلاء الأمراء وعييدهم بالأجور . وكانت فرقة الانكشارية أعلى شأنًا من فرقة العزب ، وحرص السلطان على أن يكون تعيين أغا الانكشارية من قبله أو من قبل والى العثمانى للاحتفاظ بشيء من التوازن إزاء أمراء المماليك ، وكان أغا

الانكشارية يتولى قيادة الجيش المصرى ويعرف بلقب أغا مستحفظان . ومن غير الواضح لنا المصدر الذى غذى صفوف هاتين الفرقتين بالرجال ، إذ يقرر ستانفورد شو بالعبرة الصريحة أنهما ظلتا مستقلتين عن البيوت المملوكية ، كذلك يوضح السياق العام للأحداث أن الاستانة لم تمد أيتهما بالرجال الا عند إنشائهما وذلك باستثناء منصب قائد الانكشارية ، ولا يبقى أمامنا بالتالى الا احتمال أن يكون الأفراد الأصليون بالفرقتين قد استقروا فى مصر وتناسلوا بها وربما توارث أبناؤهم مناصبهم فظلت حكراً على نسلهم . وذلك الاحتمال الأخير أرجح من أن تكون صفوف تلك الفرقتين قد فتحتا لعموم المصريين ، الأمر الذى لا يستقيم مع الدلائل التاريخية التى تشير إلى تصاعد قوة ونفوذ العزب والانكشارية من جهة ، واستمرار احتكار السلطة من قبل أعراق أجنبية عن مصر من جهة أخرى ، إذ أن الأرجح أنه لو حدث أن تغلغل المصريون فى صفوف هاتين الفرقتين العسكريتين وحملوا السلاح لكان ذلك من شأنه أن يفجر التناقض بينهم وبين الحكام الأجانب وأن يبرز مساراً وظواهر تاريخية مختلفة عن تلك التى شهدتها البلاد منذ منتصف القرن الثامن عشر .

١٤ - الرافعى ، ١٣ ، لهيطة ، ١٧ .

. Cezzar Pasha, 29.

١٥ - Halil Inacli, "The Ottoman Economic Mind and Aspects of the Ottoman Economy" in M.A. Cook, ed., Studies in the Economic History of the Middle East (1970), 217-218.

. Inacli, 217 . ١٦ - أنيس ١٤٢ ، ١٤٩ .

. Inacli, 217-218, Gibb, I, 209 . ١٧ - أنيس ١٤٢ ، ١٤٩ .

الفصل الثاني

إدارة الثروة : مدخل إلى العلاقات الطبقية والصراع الطبقي

أولاً : السيطرة الادارية على مصادر الثروة : نظم المقاطعات والاسناد الضريبي

تمكنت الادارة العثمانية من بسط سلطانها على مصادر الثروة في مصر بتأسيس ما عرف بـ « نظام المقاطعات »^(١) وكان ذلك النظام الترجمة العملية لمبدأ أن السلطان صاحب الحق الأول في توزيع حصيلة الانتاج المصرى باعتباره مالكا للأصل الذى نشأ عنه ذلك الانتاج .. وطبقاً لذلك النظام ، فقد تم تقسيم كافة مصادر الثروة (أى أدوات الانتاج) الى وحدات إدارية صغيرة (مقاطعات) بحيث يسهل الوصول الى كافة الكيانات الانتاجية حتى أصغرها وتحصيل ضريبة منها لصالح الخزانة استناداً الى تبريرات تفصيلية اختلفت مع اختلاف الأصل الذى نشأ عنه الايراد الخاضع للضريبة .

وقد تم امتصاص الايرادات من المقاطعات باتباع نظام يمكن أن نسميه نظام الاسناد أو الاعهاد الضريبي^(٢) ، تحمل المتعهد بموجبه مسئولية توريد

الضريبة « الخراج »^(٣) المقررة على المقاطعة المسندة اليه الى الخزانة . وقد أخذ ذلك الاسناد الضريبي عدة أشكال ، كان أكثرها انتشاراً شكل الالتزام^(٤) والذي عرف المتعهد في ظله باسم « الملتزم » لالتزامه بأن يسدد للخزانة العامة مقدماً الضريبة المستحقة على المقاطعة المسندة اليه، أو الملتزم بها مقابل تمتعه بحق تحصيل إيرادات تلك المقاطعة من مستغليها (المنتجين العاملين بها)، والتصرف الحر في اجمالي تلك الإيرادات بما فيها ما يفيض من الضريبة المسددة (الفائض) وهو الفائض الذي اعتبر الربح الخاص للملتزم من المقاطعة المعنية .

ومانود أن نؤكد عليه هنا هو أن تلك الأموال المحصلة من المقاطعات لم ينظر اليها كضريبة بالمفهوم المعاصر لهذه الكلمة ، أى أنها لم تعتبر وسيلة لتدبير موارد مالية يفترض في تقدير نسبتها وتحديد أوجه انفاقها توخى الصالح العام مع الاقرار الضمني بحفظ حق المنتجين المباشرين في حصيلة عملهم ، وانما اعتبرت — على النقيض من ذلك — أداة لتأمين وتحصيل إيراد مستحق للسلطان بصفة أصلية أى بصفته المالك الأصلي للمقاطعات المدرة لتلك الإيرادات ، واعتبر الجزء المتروك لمباشري العمل الفعلي بالمقاطعة وصانعي انتاجها وإيرادها تنازلاً وهبة من السلطان اليهم كما نبين في الأجزاء التالية . وقد ظهرت الدلالة العملية لذلك الفارق النظري فيما أضفته من مشروعية استخدام الملتزم لأى وسيلة من الوسائل في جبي الضرائب ، باعتباره متصرفاً وقتها لمشيئة السلطان ومن أجل صيانة حقوقه .

ونلاحظ هنا أنه عملاً على تمكين الخزانة من نيل نصيب في الإيرادات المولدة في سائر أوجه النشاط الانتاجي ، فقد اهتم واضعو نظام المقاطعات بتحديد نطاق كل مقاطعة تحديداً واضحاً و ذلك بمحصريها في منطقة جغرافية محددة وفي نشاط واحد محدد بداخل تلك المنطقة ، فأوجدت بذلك شبكة

ضمت عدداً كبيراً من المقاطعات المقسمة طبقاً للموقع ولنوع النشاط الانتاجي^(٥) . وفضلاً عن أن ذلك كفل الامتداد الواسع لشبكة المقاطعات وبالتالي للضرائب المحصلة ، فقد ساعد أيضاً على تعريف كل ملتزم بمحدود مسؤوليته بصورة لائس فيها . وفي الأوقات التي اتسعت فيها رقعة المقاطعة أو تعقدت الأنشطة الممارسة بداخلها ، كان يتم السيطرة على كافة فروعها بتعيين الملتزم لوكلاء له كانوا بمثابة ملتزمين من الباطن^(٦) ، وتم بذلك خلق العديد من المقاطعات الفرعية التي زادت من تغلغل نظام المقاطعات وامتداد نطاقه .

ونظراً لأن الخوض في نظام المقاطعات يمكن أن يجرف الباحث الى موضوعات أخرى عديدة ، فسوف نحدد هنا تناولنا لذلك النظام في أمرين نحاول ابرازهما :

الأمر الأول امتداد نطاق ذلك النظام وتغلغله في سائر الأنشطة الانتاجية بكيفية كفلت السيطرة على توزيع حاصل الناتج المتحقق من أغلب المصادر الرئيسية .

والأمر الثاني الممارسات (الصراع الطبقي) التي اتسمت بها عمليات جبي الضرائب ، والتي أدت عملياً الى امتصاص أكبر قدر من الفوائض باستخدام أساليب عنف وابتزاز متنوعة من قبل الملتزمين ومعاونيهم التنفيذيين وممثلي الجهاز الاداري (الإدارة البيروقراطية) أو مندوبيه .

ثانياً : تشعب السيطرة الادارية على مصادر الثروة

تشعبت المقاطعات في ريف مصر وموائنها ومدنها تأسيساً على المبادئ السابقة .

وقد برر حسين أفندى بعضاً منها تبريراً محدداً^(٧) يستقى أصوله من حق الملكية المطلقة السابق لنا تناوله ، فذكر أن الضرائب تفرض على الفلاحين زارعى الأرض دافعى الضريبة مقابل استغلالهم للأرض الزراعية التى يملكها السلطان ونظير تمتعهم بحق الأعشار (حق الاحتفاظ بنسبة من المحصول لأنفسهم) ، وأنها تفرض على « أمين البهار » نظير تمتعه بتحصيل الجمارك على البضائع المارة بميناء السويس واحتفاظه بأغلب حصيلتها ، وكذلك تفرض الضرائب على المحتسب وغيره من الملتزمين المسئولين عن الأنشطة الحضرية نظير تمتع كل منهم بحق تحصيل ضرائب متنوعة على مختلف الأنشطة الحضرية التى يتولد منها إيرادات لأصحابها، باعتبار كل الإيرادات حقاً للسلطان وباعتبار الملتزم مسئولاً عن صيانة ذلك الحق والوفاء به .

وفيما يلى نبذة موجزة عن كيفية تحديد نطاق النوعيات المختلفة للمقاطعات .

١ — المقاطعات الريفية (الزراعية) :

غطت المقاطعات الريفية كل القرى فى كل الأقاليم المحلية (المحافظات) الستة عشر فى مصر ، وكانت كل مقاطعة تنحصر فى قرية واحدة وما يحيط بها من أراض^(٨) . وقسمت كل مقاطعة الى عدد من الالتزامات ثم وزعت على عدة ملتزمين بنسب مختلفة ، فكان هؤلاء يدفعون مقدماً الضرائب أو الرسوم التى تحددها الخزانة مقابل كل التزام توزعه ثم يحصلونها وقت الحصاد نقداً أو عيناً ، مضيفين الى الضرائب الأصلية زيادات متنوعة نبين أمثلة منها فى أجزاء تالية . وينقل لنا أحد الباحثين توزيع أنصبه بعض المقاطعات الريفية^(٩) نقلاً عن دفاتر الأرشيف ، فيذكر أن قرية بيشة رزينة من نواحي الشرقية كانت مقاطعة مستقلة مقسمة على عدد من الملتزمين وأن خمسة من هؤلاء تولوا واحداً

وعشرين قيراطاً^(١٠) بها بأنصبه قدرها ستة قراريط لاثنين منهم وثلاثة قراريط لكل من الثلاثة الباقيين ، ويذكر كذلك أن تسعة ملتزمين تولوا واحداً وعشرين قيراطاً من التزام قرية اتلديم بملوى موزعة عليهم في رقع متفاوتة الأنصبه ، وتكرر نفس النمط في قرية الغابة بالشرقية حيث توزعت أنصبه قدرها ثلاثة وعشرين قيراطاً على سبعة من الملتزمين بنسب متفاوتة . وفي كل الأمثلة السابقة ، نال كل ملتزم حق الالتزام لرقعة محددة من الأرض وتراوح نصيبه بين ربع قيراط وستة قراريط من زمام المقاطعة ، محددة له أبعادها بوضوح وقد بلغت الإيرادات المحصلة من المقاطعات الزراعية حوالى خمسة وستين فى المائة من اجمالى إيرادات الخزانة العامة كما نوضح فى الجدول رقم (١).

٢ — المقاطعات الجمركية والبحرية وحركة النقل التجارى :

كذلك خضعت الإيرادات التجارية لنظام ضريبى مماثل . كان لمصر وقتها علاقات تجارية بكل من أوروبا والهند وتركيا وأفريقيا والجزيرة العربية والسودان وسوريا ودول عربية أخرى ، وكانت البضائع تخرج منها وتدخل اليها من خلال موانئ رئيسية^(١١) فى الاسكندرية ورشيد والسويس ودمياط والبرلس والقصير حيث انشئت وحدات جمركية فى كل منها . كما قامت التجارة بين مصر وكل من السودان ومناطق وسط افريقيا عن طريق القوافل البرية العابرة للطرق الصحراوية^(١٢) .

وقد عمل النظام الحاكم على إخضاع كل تلك القنوات التجارية لنظام المقاطعات فأنشئت مقاطعات جمركية^(١٣) لتغطية البضاعة الداخلة والخارجة عبر كل الموانئ ، وكانت هناك مقاطعة واحدة تغطى كلا من الاسكندرية

ورشيد بصورة مشتركة بينما كانت هناك مقاطعة واحدة مستقلة لكل من الموانئ الأربعة الأخرى . وقد تمتع المتعهدون عن تلك المقاطعات بحق تحديد وفرض الجمارك على البضائع الداخلة أو الخارجة وبحق تحصيلها والاحتفاظ بها وظلوا محتفظين بذلك الامتياز طالما كانوا يسدّون مقدماً للخزانة العامة الضرائب المحددة سلفاً . ويبدو أن ذلك الأسلوب في التحصيل كان أكثر ملائمة للخزانة من تعيين محصل مسئول على ذمة موظفيها ، حيث أنه - من وجهة نظرها - كفل لها تحديد الإيراد الذي تبغيه والحصول عليه مقدماً دون ربطه بحركة التجارة الفعلية ، وثبتتهن أنه ربما تم تعديل مبلغ ذلك الإيراد المبتغى من فترة لأخرى وفق التذبذب في تلك الحركة الفعلية . وكان نظام تلك المقاطعات الجمركية يقوم على فحص البضاعة وفرض الجمارك عليها في كل ميناء تمر به ، حتى إذا كان قد سبق سداد رسوم عنها في ميناء مصرى آخر^(١٤) .

كذلك امتدت السيطرة الادارية الى ماعدا الجمارك من مصادر للإيرادات في الموانئ ، فمنح « القباطنة »^(١٥) الحق في تنظيم التجارة والملاحة بتلك الموانئ وفرض الضرائب عليها^(١٦) .

أما فيما يتعلق بالقوافل التجارية ، فإننا لا نجد ذكراً في المراجع الرئيسية المستخدمة عن وجود مقاطعات محددة تغطيها ، وإن كان الرحالة سويني ينشأ عن تكرار مقابلة القافلة التي ارتحل معها عبر الصعيد لوكلاء محلين طالوها بسداد ضرائب في أكثر من مكان واحد ، كان من بينها إسنا وبرديس والقاهرة^(١٧) . كذلك يشير حسين أفندى إلى قيام حاكم (محافظ) جرجا بفرض رسوم على قوافل تجارة الرقيق وقيام رجاله بتحصيلها عند قدوم تلك القوافل إلى حدود الإقليم^(١٨) .

٣ - المقاطعات الحضرية :

ونظراً لتنوع النشاط الاقتصادى فى المدن وتعدد مخارجه ، صعبت بعض الشئ مهمة تحديد النطاق الذى تحكمه المقاطعات الحضرية وذلك بالمقارنة بكل من المقاطعات الريفية والجمركية حيث أساس انشاء المقاطعة الواحدة أكثر وضوحاً بسبب النوعية المحدودة لأدوات الانتاج المستخدمة فى تلك الأنحاء وإمكان الوصول إليها من خلال قواعد محدودة ثابتة . كان ضرورياً إذن وطبيعة النشاط الحضرى هكذا أن تتنوع الأسس التى استخدمتها الخزانة فى تحديد نطاق المقاطعات الحضرية إذا ما أرادت أن تنفذ إلى مصادر الإيرادات بالمدن .

وكانت إحدى تلك الوسائل^(٢٩) الاستفادة من وجود مراكز تجمع حيوية يمر بها التجار كما يمر بها آخرون فى مرحلة أو أخرى من مراحل الانتاج ، مثل المخازن وساحات الأسواق الدورية ، واستخدام تلك المراكز أساساً لبعض المقاطعات الحضرية . كذلك عملت الخزانة على الاستفادة من انتظام أهل الحرفة أو التجارة الواحدة فى طوائف ضمت كل العاملين فى نشاط انتاجى محدد واستخدمت تلك الطوائف كأساس آخر لإنشاء المقاطعات الحضرية . وكانت المقاطعات تؤسس ، فى هاتين الحالتين ، بحيث تضم كل منها عدداً من المخازن أو الساحات أو الطوائف .

أما فى الأحوال الأخرى^(٣٠) التى لم ينتظم فيها ممارسو نشاط معين فى طائفة ، وصعب تتبعهم فى الأسواق والمخازن ومراكز التجمع الأخرى ، فقد سعت الخزانة الى السيطرة على الإيرادات الناشئة من مثل تلك الأنشطة بوسائل تضمنت اشتراط الحصول على ترخيص مزاولة ، ثم احتواء حق اصدار بعض تلك التراخيص فى مقاطعة تحتكر ذلك الحق وقد تقوم - الى جانب ذلك - بالاشراف على بعض الطوائف والمخازن . وقد خضعت كل الأنشطة الفردية

التي يوظف ممارستها أنفسهم من خلالها^(٢١) مثل الصيد والعباب الحواة وغيرها من الأنشطة ، الى شرط استخراج تلك التراخيص .

وتطبيقاً لتلك الوسائل ، صُنفت الأنشطة المزاوله بداخل القاهرة الى عدة مقاطعات، أسند أغلبها إلى أمناء^(٢٢)، وأهمها ثلاث أمانات رئيسية هي أمانات الاحتساب والخردة والبحرين .

وقد تفرعت مسؤولية المحتسب^(٢٣) الى تحصيل الضرائب فحسب في أسواق الاتجار في بعض السلع المحددة (البلح والخيار والسكر والمواخ والأبقار والزبيب والجبن والفول والبادنجان والشمم) ، والى تحصيل الضرائب بالإضافة الى الاشراف على الموازين والأسعار والمقاييس في أسواق أخرى (الخبازة والجزارة والاتجار في الزيوت والأسماك والسردين والخضروات واللبن والشمع) . وكذلك كان للمحتسب الحق في فرض ضريبة على طوائف الحرف اليدوية والصناع المهرة ، اقتصرت على مزاولي الحرفة أو الصناعة دون أن تفرض مباشرة على السلع المنتجة أو الخدمات المقدمة .

أما أمين الخردة^(٢٤)، فقد شملت مسؤوليته تنظيم أسواق المأكولات الخارجة عن نطاق مسؤولية المحتسب داخل القاهرة ، وأسواق السلع الأخرى في مصر عموماً ، بالإضافة الى مهامه الأصلية منذ إنشاء ذلك المنصب في ام ١٥٢٨ في رقابة الألعاب العامة والأنشطة الترفيهية ، وتحصيل الضرائب عن كل ماسبق من أسواق وأنشطة .

وأسندت إلى أمين البحرية^(٢٥) مقاطعة مستقلة للملاحة النيلية ، فمنح الحق في فرض ضريبة على أى مركب تنقل البضاعة الى أى من ميناءى مصر القديمة أو بولاق وهما ميناءا الدخول الى القاهرة التى وفدت اليها البضائع من كل أنحاء مصر وعلى الأخص من الصعيد عن طريق الملاحة النيلية . كما كان

لأمين البحرين الحق في تنظيم الحركة التجارية وفرض وتحصيل الضرائب في الأسواق والأرصفة المحيطة بالميناءين ، وكانت تلك المناطق سوقاً رئيسية لتجارة الحبوب في القاهرة .

كذلك كانت هناك بعض المناصب الأخرى الأقل في الأهمية والتي كفلت مزيداً من الاشراف والسيطرة على الحركة التجارية بالقاهرة ومحيطها^(٢٦) .

ويبدو لنا من البيانات المحدودة المتاحة عن المقاطعات الحضرية في المدن الأخرى^(٢٧) أن تأسيس المقاطعات هناك اتبع نهجاً مختلفاً ربما كان مناسباً لتلك المدن إذا وضعنا في اعتبارنا التنوع الأكبر للأنشطة في القاهرة، حتى في ذلك الوقت . فقد كانت المقاطعات في المدن الرئيسية الأخرى تقتصر كل منها على نشاط انتاجي محدد بدلا من ضمها عدة طوائف أو أسواق ، وذلك مع الحرص على ان تزداد شبكة المقاطعات في كل من تلك المدن لتلم سائر الأنشطة الرئيسية بها . ولنعط أمثلة لبعض المقاطعات الحضرية خارج القاهرة . فقد أنشئت في دمياط مقاطعتان لتغطية زراعة الأرز بها (مقاطعة الأرز الميرى ومقاطعة الأرز البياض) حيث كانت المدينة اقليماً رئيسياً لزراعة الأرز وتجارته، كذلك انشئت مقاطعة خاصة بصيد الأسماك في منطقة بحيرة المطرية بالقرب من القاهرة ، وفرضت رسوم على المشتغلين بموازين القطن وبالموازين العامة الأخرى في رشيد عرفت باسم ضرائب الحماية . ونجد أن ضرائب الحماية تلك كانت تفرض دائماً على الموظفين العاملين في أنشطة تبيح لهم تحصيل أموال من المتعاملين معهم بصورة مباشرة ، كما كان الحال بالنسبة لمشتغلي الموازين وللكتبة في الموالي .

وقد بلغ المتوسط لمجموع مساهمة المقاطعات الجمركية والحضرية في اجمالي الإيرادات السنوية للخزانة العامة حوالى ١٦ ٪ ، مما يعنى أن حوالى ٨٢ ٪ من

ايرادات الخزنة تحقق من الاستيلاء على أنصبة في الأنشطة الانتاجية جمعها من خلال الاسناد الضريبي للمقاطعات . وقد جاءت أغلب الايرادات الأخرى من ضرائب عن المناصب وكذلك من الجزية المفروضة على أهل البلاد من غير المسلمين . (راجع الجدول رقم ١) .

ثالثا : الاستزاف الطبقي : الإطار العام

تغلغت شبكة المقاطعات في سائر مصادر الثروة ، اذن . وكان يمكن أن يقتصر تأثير ذلك على تأمين نصيب للخزنة (والطبقة الحاكمة من ثم) في كل نشاط انتاجي تنال منه تلك الشبكة واسعة الامتداد لو كانت الضريبة المبتغاة مستقرة ومعقولة، أو بالأحرى لو أخذت التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية للضريبة في الاعتبار ، وكان يمكن للمنتجين والعاملين الذين وقع عليهم عبء الضريبة التعايش معها واستيعابها بصورة أو بأخرى وقتها . كان ذلك ممكناً لولا ممارسات أداة الحكم ، ممثلة في الخزنة العامة وفي الملتزمين ومعاونهم الاداريين ، في تحصيل الضرائب من المنتجين القائمين على أدوات الانتاج في البلاد ، والتي أدت في النهاية الى أن أصبحت الضريبة أداة سافرة لاعادة توزيع الدخل لصالح الطبقة الحاكمة بصورة ترتبت عليها فجوة هائلة في الدخل وتركز هائل للثروة في يد تلك الطبقة .

ونلاحظ أن النقط الأساسي لممارسات الطبقة الحاكمة في استخلاص ما ابتغته من أنصبة في انتاج البلاد وايراداتها يتجلى في مبدئين :

المبدأ الأول تبنته الخزنة العامة وقام على حصرها نخل اهتمامها في تلقي الضريبة التي حددتها فحسب ، تاركة للملتزمين مطلق الحرية في استخدام أى وسيلة في تحصيل تلك الضريبة بل وفي تحصيل أى مبالغ اضافية يرغبون في

استخلاصها والاحتفاظ بها لأنفسهم ، وذلك طالما سدد هؤلاء لها مقدماً الضريبة المحددة من قبلها .

أما المبدأ الثاني فكان مازهر في سلوك الملتزمين انفسهم ومن عاون في نظام الالتزام، إذ تركز اهتمام هؤلاء في أن ينتزعوا من المنتجين أقصى قدر ممكن من الأموال باستخدام أى وسيلة متاحة حتى القهر والاجبار ، متجاهلين أى حقوق اقتصادية أو انسانية لمن يقع تحت طائلتهم من المنتجين ، بل وغير مدركين تلك الحقوق - على الأرجح - حتى على المستوى النظرى .

ولعل من المناسب هنا لقاء بعض الضوء على بعض معالم نظام الالتزام . فقد اتسم ذلك النظام بكونه أدير من خلال مستويات أو طبقات من الوكلاء والموظفين الإداريين^(٢٨) فالمقاطعة ملك خاص للسلطان تحولت الى الملتزم نظير سداده الضرائب المستحقة للخزانة مقدماً وحصل الملتزم بدوره على مايفيض عما سدد من أموال من خلال وكلاء مختلفين^(٢٩) جاء بعضهم من داخل المقاطعة ذاتها وبعضهم من خارجها .

وفي كل مستوى من مستويات ذلك التسلسل الإدارى كان نمط الممارسات السائدة واحداً ، فالوكلاء الأعلى رتبة ينحصر اهتمام كل منهم في تحصيل ما يحدده من مال من الوكيل الأدنى منه مباشرة تاركاً له الحرية في كيفية استخلاص المال المطلوب وفي الاحتفاظ لنفسه بأى مبالغ تزيد عليه ، وهكذا دواليك حتى نصل الى أدنى الوكلاء رتبة والذين فرض كل منهم الضرائب الباهظة على المنتجين الفعليين عملاً على زيادة مايستقيه من مال لنفسه بعد تسليم مستحقات من يعلونه من الوكلاء . والأمر ذو الدلالة هنا أن كل وكيل من الوكلاء اعتبر نصيبه المبتغى في إيرادات المقاطعة التزاماً واقعاً على الوكيل الأدنى مباشرة ، واعتبره بالتالى مطالباً بسداد ذلك النصيب بالكامل

سواء حصل عليه من الوكلاء الذين يلونه في هيكل التسلسل أو من المنتجين الفعليين أو من أمواله الخاصة .

وأقرز ذلك النمط من السلوك أنماط ممارسات أخرى ، تمثلت في ابتداع الضرائب بصورة جزافية من قبل أى من العاملين في سلك الوكلاء ، ونقل عبئها من كل عامل الى العامل الأدنى مع زيادة عنصر ربح إضافي في كل مستوى من المستويات ، حتى الوصول الى القاعدة النهائية المؤلفة من القوى البشرية القائمة على الانتاج الفعلي حيث تحملت طبقات المنتجين مجموع مطالب الأداة الحاكمة ومعاونيها من الاداريين .

وقد أنبأنا الجبرتي ببروز انماط في بعض الأحوال تشابه هذا النمط من السلوك وتقيس عليه ، إذ لاحظ قيام كبار التجار ممن شاركوا في تحصيل الضرائب بحكم مكانتهم وسط أقرانهم بنقل العبء الضريبي من على كاهلهم الى التجار الأصغر شأنًا وذلك كلما قام الحكام بفرض ضرائب جديدة^(٣٠). وننوه هنا بأن الضرائب كانت تفرض في العادة كمبلغ إجمالي واحد يحصل بأكمله من مجموع المشتغلين بتجارة سلعة أو سلع محددة ، ونلاحظ أن تلك الضرائب كانت تأخذ أحياناً صورة ضرائب سافرة ، وفي أحيان أخرى كان يتم تحصيل تلك المبالغ بصورة ضمنية مستترة لخداع المستويات الأعلى من الاداريين أو الحكام وذلك مع الاستمرار في لقاء العبء النهائي على كاهل المحكومين^(٣١) . وننوه هنا أن مصالح كبار التجار لم تتناقض تماماً مع النظام القائم (مثلهم مثل علماء الدين) برغم تعرضهم وطوائفهم للضرائب التجارية ، إذ احتفظوا ببعض العلاقات بالطبقة الحاكمة ، تمكنوا بفضلها من القيام بمجبي الضرائب ومن تحقيق منافع أخرى مختلفة سوف نتعرض لها بشيء من التفصيل في الفصل الأخير من هذه الدراسة .

كذلك يلاحظ ستانفورد شو^(٣٢) ، أن الأموال ظلت تجمع من الفلاحين بموجب ماعرف بـ « تذاكر الشاويشية » لصالح العسكر من فرقتي المتفرقة والشاويشية حتى بعد أن بطلت الاستعانة بالعسكر من هاتين الفرقتين في تحصيل الضرائب منذ خضعت المقاطعات الزراعية لسيطرة البيوت المملوكية وصارت الأموال يحصلها اتباع تلك البيوت ومماليكها . وقد زيدت على تلك الأموال أموال جديدة طالب بها الجباة الجدد لتغطية نفقات ترحالهم وإقامتهم ، وتحمل الزراع ذلك العبء الاضافى .

ونلاحظ هنا أن تلك الممارسات التى انتشرت حتى أصبحت قاعدة عامة للسلوك أو بالأحرى معلماً من المعالم الثابتة للصراع الطبقي كانت ندابة التناقض مع بعض الحدود النظرية التى نصت عليها العقود المبرمة مع الملتزمين أو على الأقل مع تفسيرنا المعاصر لمعنى تلك النصوص . فقد ذكر حسين أفندى فى تقريره ان الملتزم يظل محتفظاً بالمقاطعة المحولة اليه طالما كان يحسن السلوك مع من بها من الرعايا ويعاملهم بحذر ومراعاة^(٣٣) . وقد أشار أحد الباحثين الى ما وصفه بالنصيحة التقليدية التى وجهها الباشا للملتزمين فى الشطر الأخير من تقاسيط (أى عقود) الالتزام الممنوحة منه ، وأعطى مثلاً لذلك فقرة اقتطفها وترجمها من تقسيط التزام مبرم مع الملتزم عن مقاطعة قرية منية بدر :

« أنت أيها الملتزم المذكور ، أنه بموجب هذا التقسيط الديوانى المعطى لك قد أصبحت القرية المذكورة فى التزامك بحق قيراطين ونصف قيراط من مصلحة المذكور ، فبناء عليه تصرف فيها ، وعليك أن تؤدى وتسلم المال الميرى (الخراج) المفروض عليك فى وقته مع التحرز من الظلم والتعدى »^(٣٤) .

ثم أشار نفس الباحث الى تكرار تلك النصيحة التقليدية فى تقسيط آخر عقد فى ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م عن مقاطعة قرية منشأة دهشور ، وأنه يزيد عليها

النص التالي :

« وأن تكون منشغلا ومقيداً بحفظ وحماية الرعايا والبرايا » (٣٥) .

وقد يكون الحرص على وضع نصوص كهذه في عقود الالتزام لايزيد عن محاولة تجميل من قبل الخزانة بوصفها ممثلاً للسلطان المستول عن الرعية ، أو بالأحرى هو نوع من النفاق الطبقي لاضفاء مسحة من الاهتمام المزعوم بأهل البلاد . ويفسر الأستاذ شو ذلك الأمر تفسيراً آخر ، إذ يذهب الى أن الأهالي اعتادوا بالتدرج الممارسات الفعلية التي اتبعها الملتزمون فقبلوها فأصبحت بذلك جزءاً من العرف السائد (٣٦) . وننوه هنا أنه كى يكتمل ذلك التفسير ربما كان لا بد لنا من ملاحظة أنماط السلوك أو ردود الأفعال المترتبة على « قبول » الأهالي لتلك الممارسات مثل هجرهم الأراضي والتسلل خفية من مقاطعة لأخرى الى آخر ذلك من سلوك يعنى أن القبول في تلك الحالة لم يعن – بالتأكيد – رضا من وقعت عليهم تلك الممارسات ، كذلك أنهم لم يكونوا دائماً مدعنين راضخين على مضض ، وإنه انما كان يعنى اعتبار ممارسات الملتزمين أمراً مسلماً باستمراره ومبرراً للسعى الى ابتكار وسائل للتصرف في ظل تلك الظروف المفترض استمرارها ، أى بالأحرى أن القبول هنا يمكن أن يعكس احساساً عميقاً بأن القهر الطبقي كان أمراً مسلماً به وأن الصراع ضده يستوجب البحث عن سبل مناسبة للتعامل معه .

وعلى كل الأحوال ، فالإطار العام الذى حاولنا توضيح معالمة فيما سبق يؤكد أن الصبغة المهيمنة على نظام الالتزام كانت جنوحه الى حرث الأموال من العاملين من أهل البلاد ، القائمين على مصادر ثرواتها (أو أدوات انتاجها) ، وذلك من خلال مستويات متتالية من الاداريين (معاونو جهاز الالتزام) الذين استبقى كل منهم لنفسه نصيباً من ثمار الانتاج ، ووصولاً الى الملتزمين الذين

تمتعوا بحق السيطرة على مصادر الانتاج فاستنزفوها ، ثم انتهاء بالسلطة العليا التي زعمت لنفسها حق ملكية البلاد وماعليها ومارست ذلك الحق من خلال أداة تحصيل مركزية (الخزانة العامة) فوضت الى غيرها مهمة جبي الضرائب بأى وسيلة متاحة فأصبح تحصيل الضرائب حقاً يباع ويشترى والمعيار فيه السعر - شأنه فى ذلك شأن أى سلعة أو امتياز - ولادخل فيه للبائع (الخزانة) بكيفية استخدام المشتري (الملتزم) له أو بما يحققه من ربح من ورائه .

رابعا : الاستنزاف الطبقي : صور وأمثلة

١ - إغتصاب القرى :

ظهرت فى المناطق الريفية أكثر الأمثلة وضوحاً على جنوح الملتزمين الى حرث الأموال بأى كيفية ، فكان استخدام القوة القهرية هناك خاصية مميزة لتلك المناطق . وقد تكون تلك الظاهرة راجعة الى غياب المجموعات الشعبية المنظمة على نمط تنظيمات الطوائف الحرفية أو تلك المجتمعة برباط الأخوة الدينية التى انتشرت فى الجهات الحضرية والتى كان يمكن لها أن تنتظم فى رد فعل جماعى ، وربما يكون السبب فى ذلك أمراً آخر قريب الصلة بذلك الاعتبار ونعنى به أن المقاطعات الريفية كانت أبعد مسافة عن المؤسسات الحضرية ذات الثقل السياسى مثل الجامع الأزهر ومجموعة علماء الدين .

وانتشر استخدام القوة القهرية عند تحصيل الضرائب ، والذي كان بديهاً أن يتزامن فى التوقيت مع موسم حصد المحصول الزراعى^(٣٧) . وقد تقاسمت عدة أطراف مسئولية التحصيل ، وامتلك كل منها وسائل القهر والاجبار . فعلى المستوى المحلى بالقرية ، كان هناك « المشد »^(٣٨) الذى نفذ العقاب

والتعذيب في كل من يخفق في سداد الضريبة المطلوبة منه . ومن العاصمة ، جاءت الفرق العسكرية لتتقدم مزيداً من السند بالقوة القهرية في تحصيل الضريبة ولتستخلص لنفسها مزيداً من الأموال .

وقد تعارف مختلف الأطراف القائمة على تحصيل الضرائب من الفلاحين على حرق أموال إضافية لأنفسهم باستخدام كافة الطرق وإدعاء كافة التبريرات الممكنة. وعرفت تلك الأموال بـ «الخرجات»^(٣٩) لخروجها عن إطار ما يؤول للخرانة من أموال وكان منها ما يدخل الى مبعوثى الولاة والديوان وحكام الأقاليم من الموظفين والعسكر ويسمى حينئذ (« الكشوفية ») وما يدخل الى معاوى الملتزم ويسمى حينئذ (« البرالى ») . ونظراً لتعدد الأطراف الجابية للضرائب وتعدد ما ساقته من تبريرات لتحصيل المزيد من (الخرجات) ، تعددت مكرنات تلك المخرجات وتسمياتها الفرعية ، فكان هناك رسم « الكشوفية » الذى حصله حكام الأقاليم وممثلوهم ، و« تذاكر الشاويشية » وهى الصكوك التى بموجبها حصل العسكر من فرق المتفرقة والشاويشية على أموال من الفلاحين ، و« حق الطريق » الذى جمعه الموظفون والرسل المبعوثون من جهات رسمية أو من الملتزم ، و« مال الجهات » الذى حصله القائمون على قوافل الحج عند مرورهم بقرى بعض الأقاليم ، و« الكلف » العينية و« الطلب » النقدية التى حصلها العسكر عند مرورهم بالقرى المختلفة .. تلك كلها مسميات لرسم ابتكرت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ولم تكن أيها مشروعة بقانون أو بمرسوم إلا « الكشوفية » . ثم حدث فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر أن أرادت الادارة الحاكمة تبسيط هيكل «الخرجات» وربما أرادت أيضا تبسيط وتوحيد تحصيلها مع بقاء تعدد المستفيدين منها ، فأعلن شيخ البلد^(٤٠) محمد بك أبى الذهب فى عام ١٧٧٤ عن رسم موحد وصفه بالعدالة واسماه « رفع

المظالم» وسمح لمحصليه برسم إضافي مقابل التحصيل و اراد أن يستبدل به كل ماكان قائماً وقتها من رسوم صارت تعرف مجتمعة منذئذ بـ «الكشوفية القديمة» ، ولكن مالبث خلفاؤه أن عادوا الى تحصيل «الكشوفية القديمة» وأضافوا اليها «رفع المظالم» و«الكلف» ، وعرفت الأخيرتان سوياً بـ «الكشوفية الجديدة» ، فتضخمت «المخرجات» مجدداً ثم بذلت محاولة لاحقة في عام ١٧٩٢ لاستبدال كافة مكونات «الكشوفية الجديدة» برسم موحد سمي «فرد التحرير» ، وظلت «المخرجات» مؤلفة من الرسوم الفرعية المتعارف عليها قديماً (الكشوفية القديمة) وحديثاً (الكشوفية الجديدة) . وبالرغم من أن الأطراف القائمة على تحصيل الضرائب كانت تؤدي جزءاً من وظيفتها مدفوعة الأجر إلا أنه كان معترفاً لها بحق تحصيل تلك الأموال الاضافية بحجة تغطية مصاريف سفرها ونفقاتها اليومية وكثيراً ما منحت سلطة فرض الرسوم - في ظل ذلك الاعتراف - على أى من القرى التي يمر طريقها بها مجرد مرور^(٤١). وكان طبعياً أن انصب اهتمام المعينين لتحصيل الضرائب وقضاء الأمور على جمع حق طريقهم فأعطوه الأولوية .

«كل اذ تشاجر أحدهم [أحد الزراع] مع آخر على أمر جزئى بادر أحدهم بالحضور الى الملتزم وتمثل بين يديه قائلاً أشكو اليك فلاناً بمائة ريال مثلاً، فبمجرد قوله ذلك يأمر بكتابة ورقة خطاباً الى قائممقام أو المشايخ بالحضار ذلك الرجل المشتكى واستخلاص القدر الذى ذكره الشاكى قليلاً أو كثيراً أو حبسه وضربه حتى يدفع ذلك القدر ويرسل الورقة مع بعض أتباعه ويكتب بهامشها كراء طريقه قليلاً أو كثيراً ، ويسمونه «الطريق» فعند وصوله أول شيء يطالب به الرجل حق الطريق المعين ثم الشكوى فان بادر ودفعها والا حبس أو حضر به المعين الى بيت أستاذه ، فيوعد بالحبس ويعاقبه بالضرب حتى يوفى القدر الذى تلفظ به الشاكى ، وإن تأخر عن حضوره أو حضور

أردفه بآخر وحق طريق الآخر كذلك ، ويسمونها الاستعجالة ، وغير ذلك أحكام وأمور غير معقولة المعنى قد ربوا عليها واعتادوها»^(٤٢) .

وقد أصبح استخدام القوة الجبرية وسيلة مألوفة لحرق أموال إضافية حتى في غير أوقات الحصاد ، وحتى في الأوقات التي يكون قد سبق فيها سداد الضريبة الأصلية بأكملها . ونلاحظ تكرار تلك الظاهرة كلما اقتربنا من النصف الأخير من القرن الثامن عشر حين انتشر التناحر بين الفرق المملوكية المختلفة وانعكس في معارك مستمرة حاولت خلالها كل من تلك الفرق استخلاص أموال إضافية من المقاطعات الواقعة تحت سيطرتها بزعم أن تلك المبالغ سوف تخصم من الضرائب المستحقة في السنوات التالية . وقد لاحظ ستانفورد شو تلك الظاهرة في دراسته ، وقرر أن عملية تحصيل الضرائب من الأراضي الخاضعة للفرق المملوكية صارت أشبه بحملات غزو واسعة النطاق^(٤٣) . كذلك ترد في الفقرة التالية المقتطفة من يوميات الجبرتي حادثة توضح أسلوب تحصيل الضرائب وسلوك القائمين على التحصيل وتأتي تلك الفقرة في سياق إشارة الجبرتي الى قيام اسماعيل بك في عام ١٢٠٣/١٧٨٨ (وهو شيخ البلد وقتها أو كبير أمراء المماليك) بفرض ضرائب جديدة وارساله رجاله لتحصيلها .

«ووجه على الناس قباح الرسل والمعنين .. فيدهمون الانسان ويدخلون عليه في بيته مثل التجريدة الخمسة والعشرة بأيديهم البنادق والأسلحة بوجوه عابسة ، فيشاغلهم ويلاطفهم ويلين خواطرهم بالاكرام فلا يزدادون الا قسوة وفظاظة ، فيعدهم على وقت آخر فيسمعون نبيح القول ويشططون في أجرة طريقهم وربما لم يجدوا صاحب الدار أو يكون مسافراً فيدخلون الدار وليس فيها الا النساء ويحصل منهم ما لاخير فيه من الهجوم عليهن»^(٤٤) .

ومن أشكال الاستنزاف الطبقي في القرى كذلك أن أكره الزراع على العمل المجانى فى أراضي « الوسية »^(٤٥) الخاصة بالملتزم ، أى تلك الأرض التى اقتطعت له معفاة من الخراج ويساوى الأستاذ لهيطة فى السطور التالية جسامة التهرب من العمل فى الوسية بجسامة التوقف عن دفع الضرائب ، إذ يصف مهام « المشد » قائلا :

« يقوم بتنفيذ ما يوقعه الملتزم من العقوبات على الفلاحين الذين يتوقفون عن دفع الضرائب أو يجمعون عن أداء ما يطلب من عمل فى أراضي الوسية أو يعملون فى هذا العمل . وكان الجلد هو العقوبة الشائعة التى يتعرض لها الفلاحون »^(٤٦) .

وتعطى الفقرة التالية تصويراً قيماً لعلاقة الزراع بالملتزمين وبممثلهم ، وتمثل قيمته فى أنه لم يأت تعليقاً على حادثة بعينها وإنما جاء تلخيصاً للصبغة العامة لما شاب تلك العلاقة من ممارسات .

« ... وقد كانوا مع الملتزمين أذل من العبيد المشتري فربما أن العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب ، وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده وحياله ويهرب ، وإذا هرب إلى بلدة أخرى واستعلم أستاذه مكانه أحضره قهراً وازداد ذلاً ومقناً وإهانة ، وكان من طرائفهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتحضير طلب الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم الغفر أمس اليوم المطلوبين فى صبحه بالتبكير الى شغل الملتزم ، فمن تخلف لعذر أحضره الغفر أو المشد وسحبه من شنبه ، وأشبعه سباً وشتماً وضرباً ، وهو المسمى عندهم بالعونة والسخرة ، واعتادوا ذلك بل يرونه من اللازم الواجب ، وهذا خلاف مايلقونه من الاذلال والتحكم من مشايخهم والشاهد والنصرانى الصراف وهو العمدة ، خصوصاً عند قبض المال فيغالطهم

ويناكروهم وهم له أطوع من أستاذهم وأمره نافذ فيهم ، فيأمر قائمقام بحبس من شاء أو ضربه محتسباً عليهم بىواق لايدفعها ، وإذا غلق أحدهم ماعليه من المال الذى وجب عليه فى قائمة المصروف وطلب من المعلم ورده وهى ورقة الغلاق وعده لوقت آخر حتى يحزر حسابه فلا يقدر الفلاح على مرادده خوفاً منه فإذا سألته من بعد ذلك قال له بقى عليك حبتان من فدان أو خروبتان/أو نحو ذلك ، أو يصانعه بالهدية والرشوة .. وكذلك أشياخهم ، إذا لم يكن الملتزم ظالماً [لا] يتمكنون هم أيضاً من ظلم فلاحيتهم ، لأنهم لم يحصل لهم رواج إلا بطلب الملتزم الزيادة والمغارم فيأخذون لأنفسهم فى ضمنها ما أحبوا وربما وزعوا خراج أطيانهم وزراعتهم على الفلاحين »^(٤٧) .

ولقد أدت الممارسات السابقة الى حالات فرار جماعى من القرى^(٤٨) ، والى احساس عام امتزج فيه الخوف بالجفول كما يلاحظ سويني فى أسطر ترجمناها كما يلى :

« عند اقترابنا من ناجراش (عدة أميال الى الجنوب من دمنهور) تفرق أهل المدينة شتاتاً واختبأوا وأغلقوا الأبواب دونهم ، طائين أننا إما من رجال الكاشف [الحاكم المحلى] أو من البدو وأننا نحمل عليهم بغرض نهبهم . وصادفنا صعوبة بالغة فى اقناعهم باستقبالنا ، وحين استجابوا وفتحوا أبوابهم لم افهم كيف كان يمكن لمن فى مثل حالهم أن يخشى على نفسه من السرقة أو النهب ، فلقد ظهر أمامى كل مافى حياتهم فى حالة رثة بائسة »^(٤٩) .

وقد تعرضت القرى كذلك لحملات اغتصاب مستمرة قادها الحكام من كبار المماليك بأنفسهم ، وتأتى فى الجيرقى ذكر حادثة إغارة أحدهم على عدة أقاليه طلباً للمال فى ١١٩٦ هـ / ١٧٨١ م :

« فيها في صفر نزل مراد بك وسرح بالأقاليم البحرية وطاف البلاد بالشرقية وطلب منهم أموالا وفرض عليهم مقادير من المال عظيمة وكلفا وحق طرق معينين وغير ذلك ما لا يوصف ، ثم نزل الى الغربية وفعل بها كذلك ، ثم الى المنوفية »^(٥٠) .

٢ — ضرائب الحماية والمشاركة بالارغام :

وانتشرت في المدن صور أخرى للسيطرة على مصادر الأموال والاستيلاء على أنصبه فيها وتشابهت تلك الصور مع الممارسات التي ناقشناها من قبل في ثلاثة أمور تعكس روح النظام السائد في عمومه :

أولها ارتكانها على امتلاك الأطراف التي تمارسها لقوة القهر والاجبار .

وثانيها وصولها الى كل الفئات التي تنشأ عندها حصيلة من الإيرادات من جراء نشاطها الاقتصادي مثل التجار والحرفيين .

وثالثها وقوعها بصورة جزافية ومتكررة .

وقد تكرر وقتها قيام العسكر بفرض حمايتهم قسراً على أفراد أو مجموعات مختارة من بين فئات معينة ومطالبتهم بسداد ضرائب حماية هي في حقيقتها نوع من الاتاوات ، وكانت تلك « الحماية »^(٥١) تفرض عادة على أفراد أو مجموعات من التجار والحرفيين ، بل حتى على محصلي الضرائب أو الملتزمين بمن استعاروا قوتهم في الأصل من نفس تلك الأطراف التي كانت فرق منها تستدير عليهم فيما بعد لتقاسمهم ما حصلوه من أموال . كما تحققت إيرادات ضخمة مصدرها الرشوة لأفراد الفرق العسكرية الذين تولوا إدارة الأسواق الحضرية من خلال توليهم أمانات الاحتساب والخزدة وغيرها فكانوا يرتشون

نظير تغاضبهم عن مخالفات الخاضعين لاشرافهم ، وذلك فضلاً عما حصلوه منهم من ضرائب ورسوم اعتيادية^(٥٢) .

كذلك يأتي في الجبرق ذكر لوقائع قام فيها بعض العسكر بفرض أنفسهم كشركاء يقاسمون من يختارون من التجار ربحه .

« وفيه [في عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م] كثر تعدى العساكر على أهل الحرف كالقهوجية والحمامية والمزينين والخياطين وغيرهم ، فيأتى أحدهم الى الحمامي أو القهوجي أو الخياط ويقلع سلاحه ويعلقه ويرسم ركناً في ورقة أو على باب دكان ، وكأنه صبره شريكه وفي حمايته يذهب حيث شاء أو يجلس متى شاء ، ثم يحاسبه ويقاسمه في المكسب »^(٥٣) .

وبالرغم من أن ذلك النمط من فرض الحماية وقع خارج نظام المقاطعات والضرائب الرسمية ، إلا أننا نراه بمثابة رافداً من روافده بسبب قيامه على تقاليد قبلتها الخزانة العامة من قبل ورسخت في الأصل من خلال ممارسات الطبقة الحاكمة والجهاز الإداري المعاون (البيروقراطية) في ظل نظام المقاطعات .

٣ — التحايل على القيم والمقاييس والأوزان والتسعير :

كان التحايل على القيم والمقاييس والأوزان والتسعير وسيلة أخرى استخدمتها الطبقة الحاكمة كأداة للنهب ، مستغلة في ذلك استقرار التحكم في تلك الأدوات في يدها . وقد تعددت الصور الدالة على ذلك .

فقد كان الملتزمون يستخدمون سعراً منخفضاً عند التقييم العيني للمحصول لأغراض الضريبة ، ثم يعيدون بيع ذلك المحصول في الأسواق مستخدمين السعر المحدد للسوق والأكثر ارتفاعاً بكثير ، وكان كلا السعرين

تحدد هما السلطات الحاكمة^(٥٤) .

كذلك كان التلاعب في الموازين والمقاييس يأخذ صوراً عديدة^(٥٥) . فقد تكرر استخدام أصناج غير متعادلة في معاملات الحكومة حققت فائضاً في الموازين لصالح الجهاز الحاكم ، وقد استخلصت الخزانة لنفسها إيرادات ضخمة من هذا السبيل، وحذا الإداريون المحليون حذوها كما تكرر تغيير القيم والمعايير النسبية للأوزان والمقاييس من آن لآخر ، فيما كان أشبه بضرائب ضمنية مستترة ، فأضر ذلك بإيرادات التجار وزاد من مغنم الخزانة^(٥٦) .

وكذلك كان الحال عند تعدد القيمة المكافئة للعملة ، إذ ظلت الخزانة تحاول الاحتفاظ بقيمة اسمية مرتفعة للعملة التي تصدرها (البارة) بالرغم من النقصان المستمر في محتواها النفيس فاستشرى التضخم ، وترتب عليه تدهور مستمر في القيمة الحقيقية لعملة البلاد^(٥٧) .

ولقد ألحقت تلك الصور من التحايل مزيداً من الضرر بالأحوال المعيشية للأهالى وتسببت في تدهور ربحية التجار والحرفيين ، وأضفت أبعاداً جديدة على عملية تحصيل الضرائب وعلى سائر المعاملات التجارية والمالية بين الأهالى والجهاز الحاكم مما كرس ما في تلك المعاملات من صور فجة لحرق الأموال واستغلالها .

الخلاصة

تحول نظام « المقاطعات » إذن الى نظام مؤداه حرق خالص للأموال بسبب التقاليد والممارسات التي قبلتها الخزانة والجهاز الحاكم ، وأفضى ذلك الى خضوع المبالغ المحصلة على سبيل الضريبة للتقدير المنفرد لأى طرف يمكنه القيام

على تحصيلها ، كما أرسى السلطة والسيطرة الحقيقية فى يد من يسيطر على أدوات القهر والاجبار . بل أدى ذلك النظام بما اتسم به من ممارسات الى نشوء ممارسات أخرى ذات طبيعة مماثلة خارج حدود النظام الرسمى .

وقد لاحظ كتاب مختلفون ضخامة العبء الناتج من مختلف صنوف الضرائب والرسوم ، والذي بلغ ثقله حداً أدى الى استنزاف قوى الانتاج وأدواتها البشرية والمادية :

« من هنا نرى السبب فى انحدار مالية البلاد من سىء الى أسوأ ، إذ أن مستغلبها كانوا يأتون على الدخل ورأس المال ، فيقل رأس المال وبالتالي يقل الدخل وهكذا دواليك » (٥٨) .

ويتفق هذا المعنى مع ما يلاحظه سونينى فى فقرة ترجمناها كما يلى عن موقف الممالك إزاء مصادر الغروة بالبلاد :

« لم تكن التجارة فى أعين هؤلاء الكائنات شديدة الضرر الا منجما للثروات ، يغترفون من كنوزه وفق هواهم ودون تقدير أو روية الأموال التى يوظفونها من أجل ظفرهم بالسلطة والمكانة » (٥٩) .

وتوضح الجداول الملحقه بهذه الدراسة اجمالاً وصافى نسبة الايرادات التى استولت عليها الطبقة الحاكمة من خلال الخزنة العامة ، وان كنا نلاحظ أن البيانات الموضحة فى تلك الجداول لاتشمل كافة الأموال التى تم تحصيلها من الأهالى بحجة الضريبة ثم استولت عليها الطبقة الحاكمة ومثلوها ، إذ أن هناك حاجته الرتب المختلفة من معاونين الإداريين عن الملتزمين ومن ثم عن الخزنة كما ذكرنا من قبل ، كما أن هناك ضرائب الحماية التى فرضها الممالك والعسكر بصورة جزافية ومباشرة ولم تدخل هى الأخرى فى دائرة أموال الخزنة ، مما

يعنى أن المبالغ الواردة فى تلك الجداول أقل - فى الحقيقة - من اجمالى الأموال التى تم للطبقة الحاكمة وجهازها المعاون الاستيلاء عليها بالفعل تحت غطاء الضريبة . ومن ناحية أخرى ، يمكن القول أن تلك الأنصبة المثوية لاتمثل ما استولت عليه الطبقة الحاكمة من اجمالى الدخل المحلى قاطبة ، اذ اننا لانزعم فيها الامام بكل عناصر ذلك الدخل وانما نقصرها على ايرادات الخزانة . ومع ذلك ، فالأنصبة المثوية مؤشر كمى لسياسات الخزانة والطبقة الحاكمة ، تدعمها - هنا وفى فصول تالية - مؤشرات وصفية سجلها المعاصرون من أمثال الجبرقى وسونينى ممن رجعنا الى أعمالهم هنا .

وسوف ننتقل فى الفصل التالى الى فحص تكوين وجذور الطبقة الحاكمة بشىء من الاختصار ، ثم نستخلص أهم ما ميز سلوكها الاقتصادى من أنماط صبغت تصرفها فى الأموال التى استقطبها أركان تلك الطبقة واستولوا عليها .

هوامش الفصل الثاني

١ - Shaw, 26-41, 98-101, Huseyn Efendi, 50, 52-54, 60-61, 62-65 .

٢ - Huseyn Efendi, 140-141 .

يستخدم ستانفورد شو التعبير الإنجليزي "Tax Farming" (YJ Rq j) ليصف نظام جلب الإيرادات من المقاطعات . $Vf = Af$.

مع اعترافنا بأن ذلك التعبير يلخص المحتوى الفعلي للنظام الإجتماعى برمته ، إلا أننا فضلنا استخدام تعبير « الإسناد الضريبى » كى نصف المنهج الضريبى للنظام وفقاً لآليات ذلك المنهج وأدواته . وفى بعض الأجزاء التالية سوف نستخدم أحياناً ألفاظاً وتعبيرات من قبيل « حرث الأموال » عدا الإشارة إلى ما يسمى المحتوى الإجتماعى للأدوات العربية المستخدمة .

وقد امتد الاسناد الضريبى للمقاطعات إلى ما عدا الأنشطة الاقتصادية المدرة للدخل فى الزراعة والصناعة والتجارة ، فشمّل المناصب الرسمية التى يتولى شاغلوها تقديم خدمات للجمهور .. وقد تم استناد تلك المناصب الى شاغلها مقابل ضريبة مناصب سددها للخزانة العامة وعرفت بـ « الكشوفية الكبيرة » (أنظر الجدول رقم ١ بالملحق) ثم لم يتقاضوا من مناصبهم أى رواتب ، وإنما توفرت لهم الإيرادات من تحصيل رسوم عن خدماتهم من المتعاملين معهم ، ومن غير الواضح لنا ما إذا كانت تلك الرسوم محددة أم جزافية أو الطرف الذى كان له حق تحديدها . ولقد أشرنا فى هامش سابق الى حصول الروزنامجى على إيرادات إضافية بواسطة بيعه مناصب الكتبة من معاونيه الى الأفراد المؤهلين لشغلها ، وربما تحققت لأرباب المناصب الكبرى مصادر إيرادات مماثلة .

٣ - يفهم من تعليق ستانفورد شو على تقرير حسين أفندى أن الخزانة حددت مبلغاً ثابتاً للخراج المستحق على كل مقاطعة ، وأن ذلك المبلغ كانت نسبته حوالى ثمانية بالمائة من اجمالى الإيرادات المحصلة من المقاطعة .. وذلك قول متسق مع ذاته فى حالة استناد الخزانة الى تقدير مسبق محدد للإيرادات عند قيامها بتحديد مبلغ الخراج ، وإذا صبح ذلك فمن المحتمل أن يكون ذلك التقدير قد تعرض للمراجعة عبر الزمن . Huseyn Efendi, 140-141 .

٤ - لميطة ، ٢٧ - ٢٨ ، الرافعى ، ٢٩ - ٣٢ .

Huseyn Efendi, 56, Gibb, I, 259-266, Shaw, 26-41, Crouchley, 15-18, Stanford Shaw "Landholding and Land-Tax Revenues in Ottoman Egypt" in P.M. Holt., Political and Social Change in Modern Egypt (1968), . 91-103.

ولم يكن الالتزام النظام الوحيد الذى أسندت الخزانة بموجبه المقاطعات إلى متعهدين ، وإنما كانت هناك نظم أخرى يمكن الوقوف عليها بالرجوع إلى :

Shaw, The Financial..., 26-32, 39, 40-41, 41-46, 46-50, . 134-138.

وسوف نورد في أجزاء تالية ذكر مقاطعات عهد بمسئوليتها الى « أمناء » لا الى « ملتزمين » والفرق بين الأمين والملتزم من حيث المفهوم النظرى ، أن الأول كان يعتبر موظفاً لدى الخزانة أو وكيلها لها يتقاضى مرتباً عن توريد كامل الايرادات دون أن يحق له استقطاع أى جزء منها ، ويذكر شو في تعليقه على تقرير حسين أفندى أن ذلك الفارق صار نظرياً فحسب منذ منتصف القرن السابع عشر حين صار الأمناء يتصرفون في الأمانات الموكولة اليهم تصرف الملتزمين في التزاماتهم .

. Huseyn Efendi, 136-137.

. Shaw, the Financial..., 127-130.

الجبرى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، دار الفارس بيروت ، (١٩٧٠) ، ج ١ ، ٦٤٢ - ٦٤٣ ، محمد رفعت رمضان : على بك الكبير (بغير مؤرخ ، التصدير مؤرخ في ١٩٥٠) ، ٩٠ - ٩١ .

. Gibb, II, 63-64 .

Huseyn Efendi, 48-49, 52-54, 54-60, 62-65.

نوه أن لقب « أمين البهار » هو اللقب المميز للأمين على جمرك السويس لكون أغلب البضاعة المارة بالميناء مؤلفة من التوابل والقهوة .

. Huseyn Efendi, 52-54, 54-60.

رمضان ٧٦ - ٧٨ .

يذكر الكاتب أن البيانات الخاصة بالتزامات القرى الثلاث منقولة مما يلي : مقاطعة قرية بيشة رزية من دفتر التزامات ولايات الوجه البحرى عن سنة ١١٧٠ هـ رقم ٦/٢٤ مخزن تركى ، مقاطعة قرية اتليدم من دفتر التزامات الولايات القبلية عن سنة

١١٧٠ هـ رقم ٦/٢٣ مخزن تركى ، ومقاطعة قرية الغابة من دفتر التزامات الوجه البحرى سنة ١١٨٥ هـ رقم ٧/٥٥ مخزن تركى .

١٠ - كان القيراط مقياسا للتصيب وليس للمساحة ، وكانت كل مقاطعة تقسم الى ٢٤ قيراطا بغض النظر عن مساحتها ، ويتم توزيعها فى أنصبة متفاوتة .
Shaw, The Financial..., 52 .

١١ - لميطة ، ٤٥ - ٤٦ .

C.S. Sonnini, Travels in Upper and Lower Egypt,
Translated by Henry Hunter (1799), I, 191-194, Crouchley,
32-36, Huseyn Efendi, 49, 125-130, Gibb, I, 304.

Sonnini, III, Crouchley, 32-33, Huseyn Efendi, 13-136. - ١٢

Shaw, The Financial..., 101-117, Huseyn Efendi, 48-49, 81, - ١٣
39, Cezzar Pacha, 34-35, 40-41, 46, 48.

كانت الايرادات من البيوت الجمركية مسندة فى الأصل الى الوالى على مصر مقابل سداده الخراج الى الخزانة ، ثم سيطرت فرقة الانكشارية على تلك المقاطعات فى القرن الثامن عشر وسددوا مقابل ذلك مدفوعات سنوية من خراج وكشوفية كبيرة ، كما عوضوا الوالى عن خسارته تلك الإيرادات بأن سددوا له مقابلا عن كل بيت جمركى سمي بالكشوفية الصغيرة .

Shaw, The Financial..., 102. - ١٤

١٥ - أطلق لقب « القبطان » على قادة الأساطيل المتمركزة فى موانئ الاسكندرية ، والسويس ، ودمياط ، ورشيد ، وكان الأسطول بالميناءين الأخيرين تحت إمرة قبطان واحد . وكان الغرض من الإعهاد للقباطنة بالإيرادات المتحققة من مختلف الأنشطة الحضرية فى تلك الموانئ امدادهم بالامكانيات المالية لبناء وصيانة وتموين القطع البحرية التى تحت إمرتهم ، وكذلك لحماية السواحل المصرية وتقديم المساندة للأسطول الامبراطورى عندما تدعو الحاجة الى ذلك .

Huseyn Efendi, 81-81

Huseyn Efendi, 81. - ١٦

١٧ - ملاحظات عن المدن المختلفة فى مصر العليا (الصعيد) وردت فى الجزء الثالث من Sonnini

Huseyn Efendi, 58 - ١٨

١٩ ، ٢٠ - أنماط السيطرة على الإيرادات الخضرية المذكورة هنا موضحة بتفصيل أكبر في المرجع التالي :

. Shaw, The Financial..., 119-124 and 127-130 .

٢١ - خائنا التوفيق في الاهتداء الى مصطلح يماثل في قصره ودقته التعبير الانجليزي المعتاد . Self Employed

٢٢ - كانت تلك المهام موكولة في الأصل الى أمناء مسئولين عن توريد كل الإيرادات المحصلة الى الخزانة دون استبقاء أى جزء منها لأنفسهم ، ثم سيطرت أجنحة من الفرق العسكرية على تلك الأمانات بعد منتصف القرن السابع عشر وحولتها الى مقاطعات ضريبية احتفظ المتعهدون بها بلقب « أمناء » وإن صاروا يتصرفون كـ « ملتزمين » في حقيقة الأمر ، فصار كل منهم يسدد للخزانة مبالغ سنوية على سبيل الخراج والكشوفية الكبيرة (ضريبة المناصب) وسدد بعضهم للوالى ضريبة أخرى (الكشوفية الصغيرة) واحتفظ كل لنفسه باجمال متحصلاته من الأمانة الموكولة اليه . وينبنا ستانفورد شو مثلاً أن صافي ربح الانكشارية من إيرادات البيوت بلغ خمساً وعشرين مليون بارة سنوياً في أواخر القرن الثامن عشر ، وهو ما يعادل ١٦٧ ٪ من الخراج التى تلقتها الخزانة عن ذلك المصدر في عام ١٧٩٦ . (أنظر الجدول رقم ١ بالملحق) .

Huseyn Efendi, 93, 136.

ومن المهم هنا التنويه بأنه لم يكن مباحاً في الأصل لأفراد الفرق العسكرية تولى أى من المقاطعات الضريبية . وبالرغم من ذلك ، فقد سيطرت فرق مختلفة بطول النصف الثانى من القرن الثامن عشر على عدد من المقاطعات المسندة على سبيل الالتزام أو الأمانة ، بل وأسسوا حق توريثها لأفراد آخرين من داخل فرقهم أو من بين ورثتهم الشرعيين فخرجت تلك المقاطعات عن الآليات المعتادة المتمثلة في عودتها الى الخزانة العامة كى تباع حق الاسناد الضريبى من خلال مزاد علنى .

. Huseyn Efendi, 140-141.

ويبدو أنه مع إنتشار تلك الممارسات صار من المعتاد أن تظل مقاطعات معينة حكراً على أفراد من داخل أوجاق معين ، وبرز ذلك على الأخص في المقاطعات بالقاهرة ربما بسبب تمركز الفرق الرئيسية بها . ومن أمثلة ذلك توارث فرقة الانكشارية السيطرة على أمانة الاحتساب وكذلك على البيوت الجمركية ، وفرقة العزب لأمانتى الخردة والبحرين ، وفرقة المتفرقة لامانات المعمار والقافلة والجبجية ، وفرقة الجاويشية لأمانة الصوان . (أنظر رقم ٢٦ أدناه) .

Huseyn Efendi, 85-93, 137-138.

وقد أشرنا فيما سبق الى تبعية الفرق العسكرية للبيوت المملوكية المتنافسة فى أواخر القرن الثامن عشر باستثناء فرقتى الامكشارية والعزب ، مما يعنى أن السيطرة على بعض المقاطعات المذكورة كانت فى الحقيقة بيد أكثر البيوت المملوكية اختراقا لصفوف تلك الفرق العسكرية ، وسوف نتناول ذلك بمزيد من التحليل فى الفصل الثالث .

Shaw, The Financial..., 119-124, Huseyn Efendi, ٢٤ - ٢٣ . 136-138.

٢٥ - الجبرى ، دار الفارس ، ج ١ ، ٣٩٢

Shaw, The Financial..., 113-117, Crouchley, 29-32, Huseyn Efendi, 49, 137-138.

٢٦ - ذكرنا بعض تلك المناصب فى المامش رقم ٢٢ اعلاه ، ونصف هنا مهام وحقوق بعضها . فـ « معمار باشا » كان له الحق فى وضع النظم وفرض الضرائب على البناء والتشييد فى القاهرة ونواحيها ، كما كان مسئولاً عن بناء وصيانة القلاع الاقليمية . وقد تحققت لشاغل ذلك المنصب ايرادات بلغت حوالى مليون بارة سنوياً فى أواخر القرن الثامن عشر ، سدد مقابلها كشوفية كبيرة (ضريبة مناصب) بلغت حوالى ٥٢,٠٠٠ بارة سنوياً . وكان لـ « قافلة باشا » الحق فى تنظيم سوق الجمال بالقاهرة ومد قافلة الحج بما تحتاجه من دواب ، ثم شملت حقوقه بعد ذلك الاشراف وفرض الضرائب على سائر أسواق الاتجار فى الحيوان بالقاهرة ونواحيها ، وعلى القوافل التجارية القادمة من الشرق محملة بالبن والتوابل وعابرة بين القاهرة والسويس ، وقد تحققت لصاحب ذلك المنصب ايرادات ضخمة ، دفع جزءاً كبيراً منها لقبائل البدو المنتشرة فى طرق القوافل خطباً لمهادنتهم . وكان « جيجى باشا » مسئولاً عن مد الباب العالى والقوات العسكرية باحتياجاتهم السنوية من البارود باعتباره مديراً لمخازن الذخيرة بالقاهرة ورئيساً لطائفة صناع البارود بها وخارجها . وقد تلقى مدفوعات سنوية من الخزنة والارسالية نظير ما أرسل من بارود الى الأستانة ، كذلك باع لحسابه الخاص ماتبقى من البارود بعد الوفاء باحتياجات السلطات والجيش ، وحقق له ذلك ربحاً سنوياً بلغ اثنتى عشرة مليون بارة بعد سداد كشوفية كبيرة بلغت ٦٧,٠٠٠ بارة سنوياً .

. Huseyn Efendi, 85-86.

Shaw, The Financial..., 119-124, 127-130 . ٢٧ -

Shaw, The Financial..., 52-55, Huseyn Efendi, 52-54 . ٢٨ -

يذكر ستانفورد شو في تعليقه على تقرير حسين أفندي أن عملية تحصيل الضرائب كانت تبدأ في الروزنامة ، حيث يعد « الأفندي » (الكاتب) المعنى باقليم محدد « تذاكر » (صكوك) تبين قيمة الضريبة المستحقة على مجموع زراع كل دائرة التزام بالمقاطعات الواقعة في ذلك الاقليم ، ثم تسلم تلك الصكوك الى الملتزم فيتولى وكلاؤه توزيع عبء الضريبة على أفراد الزراع من واقع دفاتر الدائرة ثم يحصلونها .
Huseyn Efendi, 122.

ويصعب علينا أن نرى اتساق آليات التحصيل تلك مع الفلسفة التي طبعت ممارسات كل من الخزنة العامة والملتزمين ، إذ كان جوهرها تسديد الملتزم للخزنة مقدماً مقابل اطلاق الحرية له لحرث الأموال من الزراع ، وهو ما نتطرق اليه بالتفصيل فيما بعد . من هنا ، فالمنطقي في تصورنا أن تنحصر مسئولية الكتبة في التأكد من السداد المقدم للخزنة السنوي ، وأن تكون علاقة الملتزم بزراعي الأرض مستقلة تماماً عما تصدره الخزنة من إذون أو صكوك ، خاصة وأن قيم الخراج السنوي كانت معروفة سلفاً ومحددة على أساس مسح زراعي لأحوال الأرض ثم في القرن السادس عشر ولعلاقة لتلك القيمة بالمحصول السنوي مثلاً أو بأى متغير آخر قصير المدى ، كذلك فلم يطرأ على تلك القيم التقديرية للخزنة تغيير إلا فيما ندر ، حتى أن شو يعيب على الإدارة عدم تعديل السجلات الزراعية لتأخذ في الاعتبار التغير الفعلي في حال الأرض نتيجة ما تعرضت له من يوار بسبب العوامل الطبيعية (الجفاف) والبشرية أو الادارية (الاهمال) ويقرر أنه قد ترتب على ذلك أن صارت العلاقة مختلفة بين الضريبة المحددة على الأرض وبين الخصوبة الفعلية .

Huseyn Efendi, 122.

٢٩ - لهيطة ، ٢٧ - ٢٨ .

Huseyn Efendi, 52-54, 146-149,

يعدد كل من لهيطة وشو أهم من انخرط في خدمة الملتزم من موظفين معاونين ، ونلخص الهيكل العام والمهام الوظيفية لأهمهم فيما يلي :
شيخ البلد : يختار من بين أعيان القرية للاشراف على أحوال الزراعة والأمن .
وحيث أن القرية كانت تنقسم الى عدة دوائر التزام ، فقد كان الشيخ القائم على أكبر تلك الدوائر يعين شيخاً للمشايخ بالقرية .

الشاهد : يختار من بين زراع الدائرة لحفظ سجل الأراضى المدونة فيه المساحات وأسماء زارعها والضرائب المستحقة من كل منهم ، ويشرف على الموظفين القائمين بقياس تلك المساحات .

الصراف : يختار من بين رابطة الصرافين المتمركزة بالقاهرة تحت رئاسة الـ « صراف باشا » ، ويقوم بجباية الضرائب طبقاً للتوزيع المدون بسجل الشاهد .
الخولى : يختار من بين الزراع ويلتزم بمعرفة حدود دائرة الالتزام ، ويشرف على المسائل التفصيلية المتعلقة برى الأراضى وزراعتها والتي تشمل الاطمئنان الى أعمال صيانة القنوات والتوزيع العادل للمياه على الزراع وتحديد مواقيت وكيفية البذر والزرع والحصاد ، وتسوية مايقوم من خلافات في هذه الشئون . ويذكر شو أن الخولى كان ينتخبه الفلاحون لتمثيلهم في كل تلك الشئون ، ولا ترد أى اشارة تفيد بما يؤكد ذلك أو ينفيه في عرض الأستاذ هيطه ، وإن كنا نرى أن خضوع تعيين الموظف المسئول عن الزراعة والرى لاختيار الفلاحين مسألة تثير بعض الدهشة لتناقضها مع مانلمسه في الممارسات الفعلية للملتزمين ووكلائهم من عسف وجور .
الكلاف : يختاره الخولى من بين الفلاحين للعناية بالمواضى والدواب والقيام بتطعيمها ، وعلى الأخص بمواشى ودواب أراضى « الوسية » . (أنظر الهامش رقم ٤٥) .

المشد : وهو المسئول عن « دار الشد » (دار الضيافة) حيث كان الملتزم ووكلاؤه يقيمون عند القدوم الى دائرة الالتزام ، وحيث قام الفلاحون بسداد الضريبة نقداً وعيناً ، وحيث خزنت تلك المدفوعات حتى ارسالها خارج القرية . وكان المشد مسئولاً عن استدعاء الفلاحين عندما يحين موعد سداد الضرائب ويستخدم من أجل ذلك القوة القهرية إذا استدعى الأمر، كما كان مسئولاً عن تنفيذ ماينقرر من عقوبات عليهم . ولم تتوفر أى اشارة الى كيفية اختيار الملتزم للمشد ، وإن كانت طبيعة عمله تجعلنا نستبعد أن يكون قد أختير من بين الزراع .

٣٠ - الجبرى ، دار الفارس ، ج٢ ، ١٣٥ .

٣١ - الجبرى ، دار الفارس ، ج٣ ، ٤٥٧ ، لهيطة ، ٤١ - ٤٣ .

. Shaw, The Financial..., 72-73.

٣٢ - « تذاكر الشاويشية » صكوك سلمتها الخزانة العامة للعسكر من فرقتي المتفرقة والشاويشية حين كانوا يرسلون لجمع الضرائب من الجهات الريفية ، وكانت تلك الصكوك تخولهم الحق في تحصيل أموال إضافية من الزراع لتغطية نفقات الانتقال

والمعيشة وبالرغم من أن الاعتماد على هؤلاء العسكر بطل في أواخر القرن الثامن عشر إلا أن تلك الأموال ظلت تحصل لصالحهم عملاً على الاتخفص إيراداتهم ، وزيد عليها أموال حصلت لصالح الجبابة الجدد .

٣٣ - Huseyn Efendi, 52.

٣٤ - رمضان ، ٨٠ (مقاطعة قرية منية بدر سلسيل ، وثيقة رقم ٢ ملف رقم ١٩ محفظة رقم ١ مخزن تركي) .

٣٥ - رمضان ، ٨١ (مقاطعة قرية منشأة دهشور ، وثيقة رقم ٥٠ ملف رقم ٢٨ محفظة رقم ١ مخزن تركي) .

٣٦ - Shaw, The Financial..., 75-76, Shaw, "Landholding...", 97-98, Gibb, I, 59-60.

٣٧ - Shaw, The Financial..., 74-78, 80-85.

٣٨ - لميطة ، ٢٨ ، الجبرقي ، دار الفارس ، ج٣ ، ٤٥٦ . (أنظر الهامش رقم ٢٩) .

٣٩ - يتناول ستانفورد شو أنواع المخرجات بتحليل مفصل في تعليقه على تقرير حسين أفندي وكذلك في مؤلفه عن التنظيم المالي لمصر في العهد العثماني .

Huseyn Efendi, 52-54, 144-146, Shaw, The Financial, 76-77,

ويجئنا هنا التنويه بأن لفظ « الكشوفية » كان يستخدم أيضاً للإشارة الى ضرائب المناصب التي تقاضتها الخزنة من شاغلي المناصب الرئيسية (« الكشوفية الكبيرة ») وكذلك الى ما تقاضاه الوالي من بعض هؤلاء .

ويقول شو في تعليقه على تقرير حسين أفندي أن ضريبة « الكشوفية » التي حصلها جبابة الضرائب من الفلاحين كانت الضريبة الوحيدة بين كل أصناف « المخرجات » المشرعة بقانون سن في عام ١٥٢٤ وأعطى للحكام الأقاليم حق تحصيل عشر بارات من كل قرية يمرون بها عند أدائهم لمهامهم ، مما يفسر سعي الجبابة الى إلصاق لفظ « الكشوفية » بما حصلوه من رسوم أخرى سعياً الى إكسابها نكهة من الشرعية . ويبدو أن الكثير من « المخرجات » الأخرى كانت غير محددة القيمة ، بل كان مبلغها يتوقف على عوامل من بينها المقدرة المالية لأهل القرية المعنية وقوة أو مرتبة الطرف المطالب بها . ومثال ذلك ما يذكره ستانفورد شو من أن « حتى الطريق » تراوح بين مائة وثمانين بارة وتسعين الف بارة للقرية الواحدة وقت قلدوم الحملة

الفرنسية ، كذلك فقد ترك للعسكر تحصيل نفقاتهم بموجب « تذاكر الشاوشية » بما يتناسب والمساواة التي تبعد بها القرية المعنية عن القاهرة والوقت المستغرق في السفر . والأرجح أن ترك قيم الرسوم للطرف الجاني كى يفرضها طبقاً لتقديره كان يزيد من نهب الجباة للزراع عسفاً واجحافاً ، ومصدّق ذلك ما ذكره شو من أن الضرائب المحصلة فعلياً كانت تعتمد على قوة الجاني .

كما صنفت القرى في ثلاث مراتب طبقاً لخصوبة أراضيها عند تحديد قيمة « رفع المظالم » ، وأطلق على تلك المراتب « الأعلى » و « الأوسط » و « الأدنى » وكانت قيمها ١٢,٦٠٠ بارة و ٩,٦٠٠ بارة و ٤,٨٠٠ بارة للقرية الواحدة على التوالي ، واستمر ذلك التصنيف عندما استبدلت تلك الضريبة بـ « فرد التحرير » وإن انقصت قيم الشرائح إلى ٩,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ و ٣,٠٠٠ بارة للقرية الواحدة على التوالي . وهنا نحيل القارئ الى ما ذكر في الهامش رقم ٢٨ من أن أحوال الأراضي الزراعية ودرجة خصوبتها كانت بعيدة عن التقدير المثبت في السجلات ومن ثم فمن الجائز أن تكون الضريبة المحددة مبنية على تقدير خاطيء من الأصل فضلاً عن العسف والزيادة المحتملة من طرف الجباة .

٤٠ - يتضح من القراءة في هذه الفترة من تاريخ مصر أن « شيخ البلد » كان اللقب الذى أطلق على منصب أعلى أمراء الممالك شأنًا وكان هو الحاكم الفعلى للبلاد في النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

٤١ - Huseyn Efendi, 52-54, Shaw, The Financial..., 76-77.

٤٢ - الجبرى ، جوهر وآخرون ، ج٧ ، ٢٧٧ .

٤٣ - Shaw, The Financial..., 102 .

٤٤ - الجبرى ، دار الفارس ، ج٢ ، ٨١ - ٨٢ .

٤٥ - كانت أراضي « الوسية » في البداية أرضاً خصبة الأصل ، بارت لطول الاهمال ، فكانت تمنح للملتزمين تشجيعاً لهم على استصلاحها . وتغير ذلك الأمر في الأوقات المتأخرة ، فصارت مساحات كثيرة غير بائرة تمنح ضمن أراضي الوسية لتضيف الى إيرادات الملتزمين القائمين عليها .

Huseyn Efendi, 148.

٤٦ - لهيطة ، ٢٨ .

٤٧ - الجبرى ، جوهر وآخرون ، ج٧ ، ٢٧٦ - ٢٧٧ . نرجح أن يكون المقصود بتعبير

- « غلق أحدهم ماعليه من مال » أنه أنهى سداد كامل ماعليه من مال ، وأن تكون
« ورقة الغلاق » تعنى ورقة تفيد بالخالصة أو ايصالا بكامل السداد .
- ٤٨ - الجيرقي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٥٨٢ - ٥٨٣ وج ٢ ، ١٤٣ .
٤٩ - Sonnini, II, 123-124 .
٥٠ - الجيرقي ، ج ١ ، ٥٦٤ .
٥١ - Shaw, The Financial..., 128-130 .
٥٢ - Huseyn Efendi, 137-138 .
٥٣ - الجيرقي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٦٣٣ .
٥٤ - الجيرقي ، دار الفارس ، ج ٢ ، ١٥ ، ٧٨ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .
Shaw, The Financial..., 84 .
٥٥ - لهيطة ، ٤١ - ٤٣ .
Shaw, The Financial..., 72-73 .
٥٦ - الجيرقي ، دار الفارس ، ج ١ ، ١٦٣ - ١٦٥ وج ٢ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ١٦٥ ،
٢١٨ .
٥٧ - Huseyn Efendi, 168 .
٥٨ - الفقرة مقتطفة من لهيطة ، ٥٢ . أنظر أيضا :
Gibb, II, 63 .
٥٩ - Sonnini, III, 272 .

الفصل الثالث

الطبقة الحاكمة

تستمد دراسة الطبقة التى حكمت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر أهميتها من سيطرة تلك الطبقة على آليات توزيع النسبة العظمى من الثروة المنتجة فى البلاد ، وبالتالى أهمية سلوكها الاقتصادى فى تحديد أنماط الانتاج والاستهلاك السائدة . وقد مورست تلك السيطرة من خلال العلاقات المتضمنة فى نظام وشبكة المقاطعات واسعة الامتداد ، التى تكاد تكون قد استقطبت الفائض المتحقق فى كافة مصادر الثروة من خلال امتدادها الأفقى الى سائر أرجاء البلاد وتغلغلها الرأسى فى مختلف الأنشطة الانتاجية فى تلك الأرجاء ، ممكنة الطبقة الحاكمة بذلك من الاستيلاء على حجم ضخم من الفائض . وتركزت ادارة تلك المقاطعات كما رأينا فى يد أداة حاكمة تعاونها بيروقراطية تأسست بغرض تحصيل الفوائض وتحويلها من خلال الخزانة العامة الى السلطان فى الآستانة .

ولقد تعاضمت بالتدرج قوة أحد أطراف تلك الأداة الحاكمة (أمراء المماليك) فى مواجهة أحد طرفيها الآخرين (والى العثمانى على مصر أو ممثل السلطان بها) ، وسيطرت على الطرف الآخر (الأوجاقات أو القوات

العسكرية بها) ، فاختلفت معادلة الحكم وصار الطرف المسيطر المستفيد الحقيقي من الفوائض المحلية المحصلة . وقد توفرت في المصادر التي رجعنا إليها الاشارات الدالة على انفراد أمراء الممالك بتلك السيطرة ، فيذكر الجبرقي مثلاً ما يلي :

« استهلّت سنة ١١٨٨ هـ / حوالى ١٧٧٤ م ووالى مصر خليل باشا محجور عليه وليس له فى الولاية الا الاسم والعلامة على الأوراق ، والتصرف الكلى للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه إشرافاته »^(١) .

كذلك يفيدنا سونينى بوقوع القوات العسكرية تحت السيطرة المباشرة لأمراء الممالك^(٢) ويؤكد أحمد باشا الجزار فى تقريره الى الباب العالى سيطرة قلة من أقطاب الأمراء والمتقاعدين من القوات العسكرية على مقاليد الأمور ، وذلك فى فقرة ترجمناها كما يلى :

« إن أكثر الطغاة نفوذاً يأتون من بين الأمراء [البكوات أى أعلى الرتب المملوكية] والمتقاعدين من فرق العزب والانكشارية . وعدد هؤلاء لا يتعدى العشرين فرداً »^(٣) .

وسوف تتركز دراستنا فيما يلى من أجزاء على الممالك^(٤) باعتبارهم ربيعة الطبقة الحاكمة المستوطنة مصر والمسيطرة فعلاً على أداق الادارة (البيروقراطية) والقهر (القوات العسكرية) فى أواخر القرن الثامن عشر وسوف نعطي الأولوية للنواحي المتعلقة بسلوكهم الاقتصادى ، ومتناولين فى متن التحليل نواحي متعلقة بسيطرتهم على أدوات الانتاج ولكن بالقدر الذى يوضح فحسب مدى ما يستقطبون من الموارد المالية للبلاد ، ومتناولين كذلك نواحي تتعلق بأصولهم وتنظيمهم الداخلى والأساس المادى لقوتهم ولكن بالقدر

الذى تعطينا به تلك العناصر خلفية تسهل فحسب فهم وتفسير أنماط سلوكهم .

أولا : أصول الممالك وتنظيمهم الداخلى

كان الممالك يحكمون مصر قبل الغزو العثمانى ، ثم احتفظوا لأنفسهم بموقع فى الجهاز العثمانى الحاكم متقاسمين النفوذ الادارى مع القوات العسكرية عثمانية الأصل^(٥) .

انقسم الممالك الى عدة بيوت مملوكية متنافسة ، كل منها منتظم تحت إمرة أحد البكوات (الأمراء) ويضم مماليكه وأهل بيته ، وكانت البكوية^(٦) أعلى مراتب الهيئة المملوكية ، وقد دانت السيطرة على البلاد دائما لأكثر البيوت المملوكية قوة ، وكان عميد ذلك البيت هو دائما المتبوأ للنصب « شيخ البلد » والذى كان شاغله بمثابة كبير الممالك فى مصر .

وقد احتفظت الهيئة المملوكية بحيويتها المتجددة بفضل ذلك التركيب الفريد الذى اقتضى تغذية صفوف البيوت المتنافسة بأعداد ضخمة من العبيد المستجلبين من خارج البلاد واستيعاب هؤلاء فى الهيئة المملوكية بالتدريج^(٧) . كان البكوات يستجلبون هؤلاء العبيد من بلاد الأناضول والقوقاز والبلقان وجزر بحر إيجة ومناطق أخرى مجاورة لها ليستعينوا بهم على منافسيهم الأمراء الآخرين ، فيدخلونهم فى خدمتهم ويقومهم فترة تحت التدريب العسكرى ثم يعتقونهم بعد ذلك ليبدأوا فى التدرج فى الهيئة المملوكية إما من خلال القوات العسكرية أو الأجهزة الادارية المختلفة التى تتحدد مواقعهم فيها وفقاً لقوة البيت المملوكى المنتمين له . وبعد عتقهم وانخراطهم فى المراتب المملوكية الحرة ، كانوا يعيدون الكرة فيبدأون فى استيراد العبيد وفى تكوين بيتهم

المملوكى الخاص ، ولكن مع استمرار ولائهم لبیت سيدهم الأصلی على الأقل حتى يصلوا الى مركز عال بالقدر الذى يسمح لهم بتكوين طموحات خاصة بهم والتطلع الى تحقيقها .

ولعله أمر لا يخلو من الدلالة أن نلاحظ أن كل من تبوأ مركز « شيخ البلد» فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر كان من الممالیک المستجلبه ، ولم يكن أى منهم من المولودين لأب مملوكى مستجلب أو مستمصر^(٨) وربما دلنا ذلك على احتدام الصراع بين البيوت المتنافسة فى ذلك الوقت حتى صعب استمرار سيطرة أى منها على الأمور لفترة يعتد بها .

ثانياً : سيطرة أمراء الممالیک على الموارد المالية

نحاول هنا التعرف على الأشكال التى استخدمها الممالیک لاستقطاب الموارد المالية أو السيطرة عليها ، مرتكبين فى كل الأحوال الى سيطرتهم على الأدوات البيروقراطية والعسكرية . كما نحاول فى كل جزء من الأجزاء التالية إبراز مؤشرات نسبية تفيدنا فى تصور مدى سيطرة الممالیک على موارد مصر المالية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وذلك دون أن نحاول تقدير الحجم الفعلى للأموال التى استولوا أو سيطروا عليها . ونأمل أن تفيدنا الدلالات النسبية التى نحاول إبرازها هنا فى إدراك مدى ما كان لتلك الشريحة من الطبقة الحاكمة من تحكم فى توظيف فوائض البلاد ومن ثم ما كان لأولويات وأنماط انفاقها من تأثير على مقدرات مصر كلها .

١ — السيطرة على إدارة المقاطعات والانتفاع بمواردها المالية :

رأينا في الفصل السابق كيف قسم العثمانيون مصادر الثروة في مصر الى مقاطعات كانت الخزانة تحول مسئولية الاشراف على انتاجها وتحصيل ايراداتها الى ملتزمين، وتفيدنا المراجع بأن هؤلاء كانوا يأتون في الأصل بصفة عامة من الطبقة الحاكمة ومن بعض شرائح الطبقة المتوسطة ، وضموا فيما بينهم خليطاً من التجار والكتبة وعلماء الدين وأفراد الأسرة العثمانية الحاكمة وكبار موظفي الباب العالي وموظفين عثمانيين متقاعدين مقيمين في القاهرة أو في الآستانة، ثم دانت السيطرة على المقاطعات للبيوت المملوكية القوية فجاء أغلب الملتزمين في القرن الثامن عشر من أهل تلك البيوت ومن اتباعها^(٩) . وقد لاحظ الجبرقي في الأسطر التالية اهتمام على بك الكبير بمد سيطرته على مصادر الثروة في البلاد إبان توليه مشيخة البلد فيما بين عامي ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م و ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م :

« وكانت هذه هي طريقته فيمن يخرجهم ، يستصفي أموالهم أولاً ثم يخرجهم ويأخذ بلادهم واقطاعهم فيفرقها على مماليكه وأتباعه الذين يؤمرهم في مكانهم »^(١٠) .

ثم أورد الجبرقي في موقع تال تصرفاً أبرز اتجاهاً مماثلاً وصدر في ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م عن اسماعيل بك الذي تولى مشيخة البلد وقتها :

« طلع اسماعيل بك والأمراء الى الديوان بالقلعة وأخرج قوائم مزاد البلاد التي تأخر على ملتزميها الميرى ، فتصنر لشرائها كخذاه [القائم بأعماله] محمد أغا البارودي ، فاشتري نحو سبعين بلداً ، وفي الحقيقة هي راجعة الى

مخدومه يفرقها على من يشاء من اغراضه»^(١١) .

وينبنا الجبرق عن خلفية الحادثة السابقة فيذكر أن اسماعيل بك تمكن من الاستيلاء على المقاطعات بأن بالغ في طلب الضرائب ، وكلما دفع الملتزمون جزءاً طالهم بأجزاء أخرى ، حتى عجزوا ، فأعلن وقتها أن الضرائب على تلك المقاطعات متأخرة وقام بنزع التزامها عن طريق المزداد الصوري المذكور^(١٢) .

ومع تصاعد نفوذ الممالك في أواخر القرن الثامن عشر ، صارت البيوت المملوكية البارزة المنتفع الرئيسي بأغلب إيرادات الخزانة العامة بصورة تتضح من تحليل نفقاتها (أنظر الجداول الملحقه) ، كما استولى أمراء الممالك استيلاء سافراً في أحيان كثيرة على الجزء الأكبر من الارشالية السنوية المرتبة للسلطان ، وتنطرق فيما يلي الى تفصيل هاتين النقطتين كلتيهما^(١٣) .

فإذا نظرنا في القنوات الرئيسية لانفاق ايراد الخزانة ، وجدنا أن النسبة الغالبة منها (حوالى ٤٧ ٪) في المتوسط خلال القرن الثامن عشر أنظر الجدولين رقمى ٣٠١) أنفقت على أجور ومرتبات قادة وجنود القوات العسكرية التى سبق أن اشرنا الى وقوعها تحت سيطرة أمراء الممالك في أواخر القرن الثامن عشر ، فهو إذن بند لا مراء فى أنه انفاق ضرورى للحفاظ على آلة القهر الرئيسية للنظام الحاكم.وبالمقارنة ، فقد كانت المرتبات المدفوعة للممالك محدودة نسبياً وعلى الأخص فى الفترة من ١١٤٩ هـ/١٧٣٦ م الى ١٢١٢ هـ/١٧٩٧ م ، إذ أن عدد الأمراء الذين تلقوا مرتباً ثابتاً^(١٤) من الخزانة كان يتراوح وقتها بين عشرة أشخاص وثلاثين شخصاً تلقوا مرتبات يقل مجموعها عن ١ ٪ من إيرادات الخزانة فى كل الأحوال ، وكان التقليل من المرتبات المدفوعة للأمراء إتجهاً متعمداً فى سائر الاصلاحات العثمانية ، والحجة فى ذلك كانت ضخامة الأموال التى يستولون عليها لأنفسهم من مصادر أخرى ،

فكأنما أقرت تلك الاصلاحات ممارسات الأمراء بصورة ضمنية واكتفت بالسعى الى تقسيم الثروة بين مختلف أقطاب الجهاز الحاكم في ظل تلك الممارسات السائدة . تلك ترجمة عملية أخرى للاهتمام بالحفاظ على توازن القوى الحاكمة وادراك السلطة العثمانية أن المحافظة على ذلك التوازن (بتقسيم الثروات) أجدى في أغلب الأحوال من محاولة سحق أحد أركانه واحتكار الثروة لنفسها، وأن ذلك الأمر يظل أجدى طالما كانت ممارسات أمراء المماليك وحتى مغالاتهم في حدود لا تنسقط السيادة العثمانية أو تتحداهـا، فإدآ ظهر بين الأمراء فريق يرغب في الاستقلال عن الدولة السنية والانفراد وحده بثروات البلاد ، فالوضع لا يتطلب وقتها إلا « تأديبهم » واعادتهم الى نصابهم فحسب – كما أشرنا في فصول سابقة – حتى يرتدعوا ويقنعوا بنصيبهم في القوة والحكم والثروة، ويقلعوا عن محاولات الانفراد بها. تلك خاصية مميزة لآليات النظام السياسى الاقتصادى السائد وقتها ، لا بد من استيعابها .

فإذا عدنا الى النظر في بنود اتفاق الخزانة ، وجدنا أن البند الذى يلى « الأجور والمرتبات » فى الأهمية النسبية كان بند « الأنفاق على مستلزمات الحجج » والذى بلغ حوالى ٢٣ ٪ من اجمالى إيرادات الخزانة (أنظر الجدولين رقمى ١ و ٣) واستولى « أمير الحجج على نسبة كبيرة منه^(١٥) » (أنظر الجدول رقم ٤) .

وبالاضافة الى البندين السابقين ، فقد استقطع من بند « مصروفات على أغراض مختلفة بمصر » مبالغ أخرى دفعت للـ « الكشف » (حكام الأقاليم) ولغيرهم من رجال الجهاز الإدارى فى مصر^(١٦) (أنظر الجدولين رقمى ١ و ٤) وبلغ اجمالى نسبة ما وجه الى منفعة الطبقة الحاكمة عملياً من أمراء المماليك وقادة الأوجاقات فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر عن طريق القنوات السابقة حوالى ٦٠ ٪ فى المتوسط من اجمالى إيرادات الخزانة فى

تقديرنا (أنظر الجدول رقم ٤) .

كذلك كانت درجة سيطرة الأمراء على مقاليد الأمور في مصر تتناسب بصورة مباشرة مع ما يستولى عليه الأقوياء منهم من فائض إيرادات الخزانة عن مصروفاتها أى من مبلغ الارسالية السنوية الذى كان مستحقاً في الأصل للسلطان العثماني والذي تذهب حول ٢٤ ٪ من اجمالي إيرادات الخزانة في أواخر القرن الثامن عشر ، والذي تأسس التقسيم الإداري لمصادر الثروة في البلاد والجهاز الحاكم القائم على إدارتها خصيصاً من أجل تدبيره وتأمين تدفقه الى الأستانة سنوياً كما ناقشنا من قبل، وحين كان أمراء الممالك يصلون الى أعلى درجات القوة والسيطرة ، كان أقويأؤهم يصادرون تماماً ذلك الفائض ويستولون عليه ، وفي الأحوال التي وقفت بهم تلك السيطرة دون المصادرة الكاملة للارسالية كانوا يكتفون باستقطاع أجزاء متفاوتة منها لأنفسهم^(١٧) .

ونلاحظ ان الاستيلاء على أجزاء كبيرة من الارسالية أو مصادرتها كانت عامل استفزاز رئيسي في الأحوال التي تم فيها تدخل الباب العالي في مصر بالقوة العسكرية ، وهو ما يرتبط بمناقشتنا في الفقرات السابقة لسعى العثمانيين الى الحفاظ على تقاسم الثروات وتوازن القوى .

ونلاحظ هنا أن إيرادات الخزانة تضمنت في الأصل نسبة محدودة دفعها أفراد الطبقة الحاكمة ومعاونوهم على سبيل الضرائب على المناصب (ويبدو أنها بمثابة ضرائب على الدخل أو الإيرادات العام) . وبعد استنزال تلك النسبة من اجمالي ما أنفق لمصلحة الطبقة الحاكمة ، نجد أن صافي ما وجه من إيرادات الخزانة لتلك الطبقة كان يعادل في المتوسط حوالى ستة أمثال ما تلقت الخزانة منها من أموال في تقديرنا (أنظر الجدول رقم ٥) — أى أن مادفته الطبقة الحاكمة للخزانة استردت ستة أمثاله ووجهته لمنفعتها الخاصة .

٢ — تأسيس الاحتكارات وفرض الضرائب الخاصة :

بالإضافة إلى المقاطعات التي أسستها الخزنة وأدارت توزيعها على الملتزمين ، وسيطرت عليها وانتفعت بها الطبقة الحاكمة محلياً من قادة المالك والأوجاقات ، فقد كان لتلك الطبقة مصادر إيرادات خاصة جاءت من طريقين رئيسيين : أولهما احتكار تصنيع أو تسويق بعض السلع أو احتكار تصنيعها وتسويقها في آن واحد ، وثانيهما فرض ضرائب خاصة على سائر الحرف والأعمال في عموم البلاد أو في منطقة جغرافية معينة وأسموها « ضرائب حماية »، فُرِضت على أنشطة منها ماضمته بعض مقاطعات الخزنة ومنها ماخرج عن نطاق تلك المقاطعات . وقد استخدم حسين أفندى لفظ « الحوادث » للإشارة الى تلك الضرائب الخاصة المستحدثة^(١٨) والتي لم تؤل أى من إيراداتها الى الخزنة ، ومن بينها احتكار صناعات الملح والعرق وغيره من المشروبات الروحية وكذلك صيد الأسماك في النيل وبحيرات الدلتا ، وضرائب فرضت على أغلب الوكالات التجارية في المدن الرئيسية والصغيرة ومنها وكالات الأرز والصابون والقطن والحبوب والحيوانات وغيرها ، وفرد فرضها أمناء الاحتساب والخردة وغيرهم من متعهدي الضرائب الحضرية على التجار والحرفيين ممن جمعوا منهم الخراج السنوى واعتبروها بمثابة رسوم للترخيص بالمزاولة وان تم جمعها بصفة غير قانونية، واقتدى بهم في ذلك رجال الانكشارية ومن بينها ضرائب فرضها الانكشارية جزافاً على المباني والمنقولات ، وضرائب فرضها أوجاقات العزب والانكشارية على الطوائف الدينية من غير المسلمين . بل وضرائب حماية على متعهدي الضرائب تضاف الى ما سدده هؤلاء من خراج للخزنة العامة ، ورسوم ثابتة على القضاة وشاغلي المناصب الرسمية ممن عملوا في اعتماد وشهر وتسجيل الوثائق والحقوق .

و غالباً ما اعتبر المتفعون من الطبقة الحاكمة عملياً السلع والأنشطة المحتكرة وضرائب الحماية بمثابة مقاطعات خاصة بهم أسندوها ضرائباً الى ملتزمين بنفس الأسلوب الذى اتبعته الخزنة العامة .

ونلاحظ هنا أن أغلب تلك الإيرادات الخاصة جاءت من أنشطة حضرية ، وأن فرقتى الأمن (العزب والأنكشارية) ومن تبعهما وعاونته من أمناء الاحتساب والخردة كانوا في أحيان كثيرة الطرف المنشئ لتلك المقاطعات ستفيد منها . ودلالة ذلك أن القائمين على الأمن والنظام في البلاد وظفوا لديهم من أدوات القهر والبيروقراطية والصلاحيات الضبطية لينجلبوا منافع لهم من الأنشطة الممارسة في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم .

ويعلق شو على انتشار تلك المقاطعات الخاصة قائلاً :

« خلال ذلك القرن [الثامن عشر] كادت تلك المقاطعات الخاصة تخضع سائر أشكال النشاط الاقتصادى في مصر الى صورة من صور الضرائب الخاصة وضرائب الحماية » (١٩) .

وبدلنا تقرير أحد العارفين ببواطن الأمور على مقدار الإيرادات السنوية الخاصة للقلعة الحاكمة من أمراء المماليك ومن يلونهم في الهيئة المملوكية من عسكر وكشاف واتباع ومن أفراد الجهاز الادارى المعاون (٢٠) إذ يقرر أحمد باشا الجزائر في كتابه الى الباب العالى أن عدد ٥٢٥ شخصاً حصلوا على إيرادات سنوية بلغت في المتوسط ٩,٠٣٠ كيساً (تساوى ٢٢٥,٧٥٠,٠٠٠ بارة) وان هذا العدد من الأشخاص ضم ١٥ أميراً و ٣٢٠ من الرتب العليا في القوات العسكرية و ١٤٠ كاشفاً بالاضافة الى ٥٠ من الكتبة الذين جاءوا أساساً من الطبقة المتوسطة .. فإذا استبعدنا إيرادات الكتبة ، وجدنا التقرير يفيد بأن ٤٧٥ شخصاً تلقوا إيرادات سنوية تبلغ ٨,٧٣٠ كيساً (تساوى

٢١٨,٢٥٠,٠٠٠ بارة) ، وأن نصيب ١٥ أميراً بلغ ١,٢٠٠ كيس (تساوى ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ بارة) .

فإذا صحت تلك التقديرات ، وجب أن نلاحظ فيها أن اجمالي الإيرادات السنوية التي استولى عليها عدد يقارب خمسمائة شخص بلغ نيفا ومائتى مليوناً من البارات ، أى ما يكاد يساوى ضعف الإيرادات السنوية للخزانة العامة في هذا الوقت (أنظر الجدول رقم ١) ، وأن متوسط الإيراد السنوى الفردى لخمسة عشر أميراً بلغ مليونين من البارات لكل واحد منهم وهو ما يكاد يساوى اجمالي الجزية السنوية (مال الجوالى) التي حصلت الخزانة في ذلك الوقت والتي مثلت حوالى ١,٥ ٪ من إيراداتها السنوية أى أن الخمسة عشر أميراً المذكورين في مجملهم حصلوا ما يساوى حوالى ٢٢,٥ ٪ من اجمالي الإيرادات السنوية للخزانة وقتها . والأهم أن ذلك يعنى أن متوسط الدخل الفردى السنوى لكل من هؤلاء الأمراء بلغ ثلاثمائة مثل الأجر السنوى لأعلى العمال الزراعيين أجراً والى ومائتى مثل الأجر السنوى لأدناهم أجراً والى مثل الحد الأدنى المطلوب ليقم أود العامل الزراعى عموماً ، وذلك ارتكناً الى تقدير أحد علماء الحملة الفرنسية^(٢١) (جيرارد) للأجر اليومى لتلك الفئات وفى حال توفر عمل لهم على مدار السنة بأكملها – أى بافتراض العمالة الكاملة .

كانت درجة تركيز الثروة فى يد القلة الحاكمة الهائلة والفجوة الطبقيّة فى الدخل الفردى الخاص انعكاساً منطقياً وترجمة عملية لعلاقات الحكم والانتاج والتوزيع السائدة فى المجتمع وإكلاً للحلقتها .

٣ — الاكتثار من المصادرات والضرائب الجزافية :

تمكن البكوات أمراء الممالك في أول الأمر من تدبير الموارد المالية المطلوبة لسد احتياجاتهم المختلفة مما حصلوه من إيرادات المقاطعات الخاضعة لسيطرتهم وعندما زادت تلك الاحتياجات عما استولوا عليه من إيرادات ، وخصوصاً مع اشتداد حركة استجلاب العبيد والممالك الجدد من الخارج في أواخر القرن الثامن عشر ، بدأ الأمراء يواجهون احتياجاً الى موارد مالية اضافية ، فعملوا على تدبيرها كلما عنت لهم تلك الحاجة من مصادر خارجة عن الإطار النظامي ، فأكثروا من الضرائب الجزافية والمصادرات .

إذ أنبأنا الجبرقي عن تكرار « اقتراض » الممالك للأموال قسراً من التجار والأعيان باستخدام وسائل ترهيب متنوعة ، كما ينبئنا عن القيام بمصادرة أموال وممتلكات البعض من هؤلاء في بعض الأحيان ، ويرجع الجبرقي نشأة تلك الممارسات الى على بك الكبير ، فيقول في ذكر سيرته :

« وهو الذي ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادئ ظهوره ، واقتدى به من بعده » (٢٢) .

ونسوق المثالين التاليين عن حوادث المصادرات والضرائب الجزافية :

« وأحضر خليل بك [أمير الحج في ١١٨١/١١٨٣ هـ] النواخيد .. وكاتب البهار وطلب منهم مال البهار معجلاً فاعتذروا فصرخ وسبهم فخرجوا من بين يديه واخذوا في تشهيل المطلوب وجمع المال من التجار » (٢٣) .

« (وفي خامسه) [المحرم ١٢٠٢] طلب اسماعيل بك دراهم قرضه مبلغاً كبيراً ، فوزعوا منها جانباً على تجار البن والبهار ، وجانباً على الذين

يقرضون البن بالمراوحة للمضطرين ، وجانباً على نصارى القبط وعلى الأروام والشوام ، وعلى طوائف المغاربة بطولون والغورية وعلى المتسبيين في الغلال بالسواحل والرقع ، وكذلك يباعى القطن والبطانة والقماش والمنجدين واليهود وغير ذلك ، فانزعج الناس وأغلقوا وكاثل البن والغورية ودكاكين الميدان « (٢٤) .

واقضى العسكر ورجال الجهاز الادارى بأمراء البلاد ، فكانوا يغيرون على أهلها حيناً عند تأخر رواتبهم ، وأحياناً لمجرد الرغبة في استخلاص المال مع الاطمئنان الى ضعف جانب من يغيرون عليهم وضعف الحماية المكفولة لهم من ذوى الأمر والنهى في البلاد :

« وفي يوم الاثنين ثاني عشرة جمادى الأولى ١٢١٦ وقع من طوائف العسكر عريضة بالسواق وتحطفوا أمتعة الناس ومن باعة المأكّل كالشواء والفطير والبطيخ والبلح فانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الحوانيت وأخلوها منها وأغلقوها فحضر إليهم بعض أكابرهم وراطنهم فانكفوا ، وراق الحال ، وتبين أن السبب في ذلك تأخر علائقهم ، وذلك أن من عادتهم القبيحة أنه إذا تأخرت عنهم علائقهم فعلوا مثل ذلك بالرعية وأثاروا الشرور ، فعند ذلك يطالبون خواطرهم ويوعدونهم أن يدفعوا لهم « (٢٥) .

ونقتطف من الجبرقى الفقرة التالية التى يتناول فيها حوادث وقعت في عام ١٢١٦ (في حدود عام ١٨٠٢) في الحضر والريف ، فيصفها وصفاً يفيد بتكرارها حتى اعتبارها ظاهرة وشمطاً في السلوك معروفة قواعده .

« ... وحضر شخص تولى النظر والتفتيش على جميع الأوقاف المصرية السلطانية وغيرها ويده دفاتر ذلك ، فجمع المباشرين واستملاهم ، وكذلك كاتب المحاسبة وبث المعينين لاحضار النظار بين يديه وحسابهم على الايراد

والمصرف وأظهر أنه يريد بذلك تعمير المساجد وإجراء مشروعات الأوقاف وآخر مثله لتحرير الأوقاف والمساجد الكائنة بالقرى المصرية وانضمت اليه الأغوات وطلب كل من كان له أدنى علاقة بذلك ، واستمعوا على ذلك بطول السنة ، ثم انكشف الأمر وظهر أن المراد من ذلك ليس الا تحصيل الدراهم فقط ، وأخذ المصالحات والرشوات بقدر الامكان بعد التعنت في التحرير والتعلل باثبات المدعى في الايراد والمصرف خصوصاً إذا كان الشخص ضعيفاً وليس من أرباب الوجاهة والمتوجهين أو بينه وبين الكتبة حرازة باطنية ، ثم يحرمون دفترأ ويحرمون الفايط ، ثم يطلبون منه ايراد ثلاث سنوات أو أربع ولم يزل حتى يصلح على نفسه بما أمكنه ، ثم يهتمون له ذلك الدفتر ومايدين إن شاء عمر ، وإن شاء آخر ، فإن انتهت الهم بعد ذلك شكوى في ناظر وقف سبقت له مصالحة لاتسمع شكوى الشاكى ولايلتفت اليها ويفعلون هذا الفعل في كل سنة» (٢٦).

ومن الطريف هنا ملاحظة أن النهب والابتزاز الذى ساد علاقة الحكام بأهل البلاد قد ختم بطابعه أيضاً على علاقة الأجنحة المتصارعة فى الطبقة الحاكمة ببعضها البعض إذ لجأ الأمراء المظفرون الى الاستيلاء على أملاك وأموال البيوت المنهزمة ، وتوزيعها على أتباعهم أو اضافتها الى ثرواتهم الخاصة . وهناك فى الجبرقى ما يفيد بانتشار ذلك النمط من المصادرات والاستيلاء على الأموال منذ وقت مبكر نسبياً ، إذ يذكر عن الأحداث التى أعقبت إخراج أحد الأمراء من مصر [محمد بك جركس] فى عام ١١٣٧ هـ / ١٧٢٤ م ما يلى :

« نهبوا [الأمراء المنافسون] بيته وبيوت أتباعه وعشيرته ، فأخرجوا من بيته شيئاً لايعد ولايوصف ، حتى انه وجد به من صنف الحديد أكثر من ألف قنطار ومن الغنم أزيد من الألف خروف . وبعدها أحاطوا بما فيه من المواشى

والأمتعة ونهبوها ، هدموه وأخذوا أخشابهم وشبابيكهم وأبوابه ولم يبق به مكان قائم الأركان وقد أقام يعمر فيه نحو أربع سنوات ، فخرّب جميعه من الظهر الى قبيل المغرب » (٢٧) .

وبالاتساق مع سعى أعضاء الجهاز الادارى الى استخلاص الأموال كل من دونه رتبة ، في صورة ضرائب الحماية أو غيرها ، عمل السلطان على الاستفادة من الصراع المستمر بين أمراء الممالك لحرث مزيد من الأموال لنفسه ، خاصة بعد أن تقلص حجم الفاتح السنوى المرسل اليه نتيجة استيلاء الممالك على جزء منه . إذ كان السلطان يمنح تأييده للبيوت المملوكية المنتصرة بشرط حصوله على نصيب من تركة أو أموال البيت المنهزم (٢٨) مقاسمة في الغنيمة لأى طرف منتصر ، وقد تناولنا جانباً من ذلك من قبل عند إشارتنا الى خرق الأمراء للآليات النظامية لانتقال المقاطعات من ملتزم الى آخر وتصلحهم في ذلك مع مثلى السلطان بدفعهم « بدل المصالحة » أو « الحلوان » (أنظر الهامش رقم ٩ أعلاه) . ويبدو أن الفوز بتأييد السلطان كان لايزال مهماً لصيغ شيء من الشرعية والاعتراف على البيت المملوكى المنتصر ، وذلك بالرغم من أن سلطانه الحقيقى على مصر كان يبدو منعزلاً في بعض فترات القرن الثامن عشر .

غير أن مشاركة السلطان للأمراء بهجة انتصاراتهم كانت مصدر معاناة جديدة لأهل البلاد الذين تكبدوا عبء تلك البهجة بما رزحوا تحته من ضرائب اضافية فرضتها عليهم الشرائح المنتصرة من الممالك لتعويض بعض مадفعته للسلطان من أموال (٢٩) . هكذا كان صراع الأمراء وبالا على أهل البلاد في حروبهم ، بما عانوه من مصادرات وضرائب جزافية لتحويل نفقات الأمراء العسكرية ، وفي انتصارهم بما تحملوه من ضرائب جديدة لمصلحة الحكام من السلاطنة والأمراء .

ثالثاً : السلوك الاقتصادى لأمرء الممالك

١ — تدعيم الأساس المادى للسيطرة على الثروة : الانفاق العسكرى

كان السعى الى بناء وتدعيم القوة العنكرية العامل الرئيسى المؤثر فى أنماط السلوك الاقتصادى للطبقة الحاكمة من أمرء الممالك ، إذ كانت القوة العنكرية الفيصل فيما حصل عليه الممالك من عائد فى الثروة وفى النفوذ ، سواء على المستوى الجماعى أو الفردى .

فقد كانت السيطرة على الأداة الحاكمة تستقر كما رأينا فى يد أكثر البيوت المملوكية المتنافسة امتلاكاً للقوة الضاربة ، وتدنو له بفضلها السيطرة على مصادر الثروة والاستيلاء على نصيب فيها ، كذلك كان الاحتفاظ بتلك السيطرة مشروطاً بالاحتفاظ على التفوق الضارب لزاء باقى البيوت المتنافسة . وكانت تلك القوة الضاربة تتناسب مباشرة مع عدد الممالك المحاربين لدى كل منهم ، فصار الموقف التنافسى لتلك البيوت يتوقف على ما استورده كل منهم لنفسه من عبيد ينخرطون فى صف اتباعه من الممالك كما أوضحنا فى الأجزاء السابقة .

ونظراً لأن الممالك كانوا ينظرون الى أنفسهم كعسكر محاربين فى المقام الأول ، ولأن ما تلقوه من تدريب كان بغرض اعدادهم لذلك الدور ، فليس من المستغرب أن يكون ذلك قد أدى الى أن يتناسب الوضع التنافسى لأفراد الممالك فى داخل البيت الواحد مع قوة كل منهم وكفاءته فى الحرب ، وإن يكون وصول الفرد المملوكى من البيوت المظفرة الى موقع مؤثر فى الأداة البيروقراطية (الادارية أو العنكرية) والاحتفاظ بذلك الموقع والترقى فيه

مسائل متوقعة على تلك القوة والكفاءة ، وان يعرف الطموحون منهم أن تدعيم قواهم بعد استقلالهم عن ييوتهم الأصلية يستلزم بناء قوتهم العسكرية الخاصة بالتوسع في استجلاب العبيد وضمهم الى أتباعهم ومماليكهم .

كان طبيعياً ، إذن ، أن تؤدي اصول الطبقة الحاكمة وتكوينها الداخلي والمصدر الذي استمدت منه سيطرتها على أداة الحكم الى تكريس التقليد المملوكى بالحرص على الاستزادة من العبيد والأتباع لبناء وتدعيم تفوق عسكري يكفل السيطرة على أداة الحكم وثروات البلاد . وكان طبيعياً أيضاً أن يفرز ذلك سلوكاً ينعكس في تنامي حركة استجلاب العبيد من الخارج ، وأن يكون احتدام المنافسة على استجلاب العبيد مؤشراً في حد ذاته لاحتدام المنافسة على الحكم .

وتفيدنا الكتابات المسجلة في القرن الثامن عشر أن التدافع على استجلاب العبيد قد اشتد في أواخر ذلك القرن ، على وجه الخصوص ، حين حاولت البيوت المتنافسة الاحتفاظ كل بقدرتها التنافسية . وقد بدأت تلك النزعة كما نوهنا من قبل مع صعود على بك الكبير الى منصب شيخ البلد للمرة الثانية في ١١٨١ هـ/١٧٦٦ م ، وكان لتناميها أثر مباشر في تعرض أهل البلاد لمزيد من الضرائب الجزافية والمصادرات التي لجأ إليها الأمراء لتدبير موارد مالية تلاحق ما ترتب على ذلك التدافع من زيادة في الانفاق .

« وأخذ على بك يمهد لنفسه واستكثر من شراء الممالك وشرع في مصادرة الناس ، يتحايل على أخذ الأموال من أرباب البيوت المدخرة والأعيان المستوردين مع الملاطفة وإدخال الوهم على البعض بمثل النفي والتعرض الى الفائز ببعض المقتضيات ونحو ذلك »^(٣٠) .

وقد اشتدت المنافسة بعد على بك الكبير ، إذ يسجل الجبرتي في ترجمته

لسيرة محمد بك أى الذهب الذى تولى مشيخة البلاد بعد على بك مايلى :

« ولم يتفق لأمر مثله فى كثرة الممالك وظهور شأنهم فى المدة اليسيرة وعظم أكثرهم بعده وانخرقت طباعهم عن قبول العدالة ومالوا الى طرق الجهالة واشتروا الممالك فنشئوا على طرائقهم وزارة من سوابقهم وألفوا المظالم وظنوها مغنم وتمادوا على الجور وتلاحقوا فى البغى على الفور الى أن حصل ما حصل ونزل بهم والناس منازل » (٣١) .

ثم يسجل الجبرقى مرة أخرى مايفيد باستمرار المنافسة واشتدادها وذلك عند تعليقه على حوادث عام ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م .

« وشاع فى بلاد الأرناؤود وجبال الروملى رغبة اسماعيل بك فى العساكر فوفدوا عليه بأشكالهم المختلفة وطباعهم المنحرفة وعدم أديانهم وانعكاس أوضاعهم ، فأسكن منهم طائفة بالجيزة وطائفة ببولاق وطائفة بمصر العتيقة وأجرى عليهم النفقات والعلوفات وجلب له الياسرجية الممالك فاشتري منهم عدة وافرة وأكثرهم عزق ومشنبون وأجناس غير معهودة واستعملهم من أول وهلة فى الفروسية ولم يدرهم فى آداب ولا معرفة دين ولاكتاب كل ذلك حرصاً على مقاومة الأعداء وتكثير الجيش » (٣٢) .

وتفيدنا تلك الشهادة الأخيرة بأنه مع اشتداد التنافس على بناء القوة العسكرية ظهر اتجاه باستجلاب عسكر مدربين (أى ما يشابه المرتزقة المحترفين) ، ربما اختصاراً لوقت التدريب واسراعاً ببناء القوة . ونستطيع أن نتصور أن مؤدى ذلك كان سيطرة هؤلاء العسكر على أدوات القوة دون أن يستوعبوا الحد الأدنى من التقاليد المملوكية التى يبدو أن الممالك الأسبقين كانوا أحرص عليها وكانوا يعملون من خلالها على استكمال بعض مظاهر التقاليد المصرية ولو بصورة سطحية ربما من أجل التودد لأهل البلاد والتقرب

منهم . ومن الواضح أن افتقاد هؤلاء العسكر الجدد لتلك التقاليد المملوكية في التأديب والتهذيب قد أثار حفيظة الجبرتي (وأهل البلاد) وأثار سخطهم على سعى الأمراء الى الاسراع ببناء قواهم بأى وسيلة ممكنة دون الالتفات الى ما عدا ذلك من اعتبارات .

٢ - الاستهلاك الترفى والبذخ فى الانفاق

كان الممالك طبقة مستهلكة ، أفرادها بعيدون عن أداء أى دور انتاجى فى البلاد بحكم إعدادهم وتدريبهم وكذلك بحكم الوظيفة المزسوم لهم اداؤها فى المجتمع . وقد اعتبر الممالك انفسهم حكاماً عسكريين فحسب ، ورأوا فى إقبالهم على استهلاك السلع الترفيه والانفاق بتبذير على القصور الفخمة والتنافس على تميز طرزها المعمارية وزخرفها الداخلى علامات تفوق وسيادة على أهل البلاد وبين بعضهم البعض .

ومن الأمثلة الغنية بالدلالات ما ورد فى الجبرتي عن بناء أحد الأمراء لقصره فى احدى سنوات النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، إذ يذكر الجبرتي فى ترجمته ليوسف بك الكبير المتوفى فى ١١٩١ هـ (حوالى ١٧٧٧ م) أنه شرع فى بناء داره على بركة الفيل داخل درب الحمام تجاه جامع الماس ، ففعل وقتها مايلى :

« كان هذا الدرب كثير العطف ضيق المسالك فأخذ بيوته بعضها شراء وبعضها غصباً ، وجعلها طريقاً واسعة وعليها بوابة عظيمة ، ، واستمر يعمر فى تلك الدار نحو خمس سنوات ، ، وصرف فى تلك الدار أموالاً عظيمة ، فكان يبنى الجهة منها حتى يتمها بعد تبليطها وترصيصها بالرخام الدق الخردة المحكم الصنعة والسقوف والأخشاب والرواش والخرط

والأدهان ، ثم يوسوس له شيطانه فيهدمها الى آخرها وبينها ثانياً على وضع آخر ، وهكذا كان دأبه ، واتفق أنه ورد اليه من بلاده القبلية ثمانون الف أردب غلال ، فوزعها بأسرها على المواناة في ثمن الجبس والجير والأحجار والأخشاب والحديد وغير ذلك » (٣٣) .

ونلاحظ^(٣٤) أن الكمية المذكورة من الغلال تساوى أكثر من ٢٠ ٪ من الضريبة العينية التي كانت تجمعها الخزانة من سائر أنحاء مصر وقتها ، ونلاحظ أيضاً أن القيمة السوقية لتلك الكمية كانت تمثل وقتها حوالى اثنتى عشرة مليون بارة باستخدام اسعار السوق التي قدرها أحد علماء الحملة الفرنسية لذلك الوقت وتساوى تلك القيمة حوالى ١٠ ٪ من اجمالى ايرادات الخزانة العامة وقتها . (أنظر الجدول رقم ١) .

وللجبرقى أمثلة أخرى كثيرة لانفاق الممالك فى المواسم والاحتفالات ، وكلها مشابهة للمثل الذى سقناه هنا فيما تحوى عليه من بلذخ سفيه واسراف .

٣ — الحفاظ على الشرعية المزعومة للنظام السياسى : الانفاق على المظاهر الدينية

بالرغم من المظالم والغلواء اللذين اتسمت بهما ممارسات الطبقة الحاكمة ، والأرجح أنه بسبب تلك الممارسات ، سعت الدولة الى اقامة اركان نظامها على دعاوى دينية ، واهتم الحكام من الأمراء وغيرهم ، حفاظاً على الشرعية المزعومة للنظام ، بمراعاة المظاهر السطحية المترتبة على تلك الدعاوى ، فانفقوا مبالغ كبيرة^(٣٥) على المساجد وأنشأوا الأوقاف الدينية ، كما سعوا الى الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع علماء الدين الذين تلقوا معاشات ومدفوعات مختلفة من

مختلف الأمراء . كذلك أنفق الأمراء على الهبات الخيرية للفقراء في المساجد وفي أماكن أخرى خلال مناسبات متعددة .

٤ — ضعف الانفاق الاستثنائي :

تحتوي المصادر حالات متفرقة قام أمراء الممالك فيها باستثمار أموالهم في بعض الأنشطة الانتاجية ، لاسيما التجارة . لكننا نلاحظ أن تلك الحالات اقتصرت على فترات تاريخية سابقة ، وأن النصف الأخير من القرن الثامن عشر خلا من ذكرها .

وذلك الانصراف عن الانفاق الاستثنائي لا يخلو من دلالة ، ويرى بعض المعاصرين لتلك الفترة ممن زاروا مصر أن ذلك راجع الى انعدام الأمن والاستقرار السياسي ، والمقصود أن انعدام الأمن والاستقرار جعل من الانفاق الحري الاستثمار المرغوب فيه من وجهة نظر أمراء الممالك والمطلوب للحفاظ على المواقع المكتسبة في الأداة الحاكمة، أو بمعنى آخر للدفاع عن الموقع الطبقي وتوطيده . غير أن تلك النظرة التحليلية لا تكتمل الا اذا انتبهنا الى حقيقة ان عدم الاستقرار السياسي كان في حد ذاته افرازاً طبيعياً للنظام الاجتماعي السائد ، إذ سرعان ما ادرك أمراء الممالك إمكان انفراد أقواهم بالسيطرة على أداة الحكم ومن ثم على مصادر الثروة بالبلاد في ظل التقسيم الإداري العثماني لتلك المصادر، وصارت تلك السيطرة ممكنة، خصوصاً بعد أن فقدت أغلب القوات العسكرية هويتها العثمانية واندجت في البيوت المملوكية وفي النظام الاجتماعي المصري ، وكذلك بعد أن اتضح أن أغراض السلطان في مصر يمكن تليتها بالابقاء على نصيب معقول له في الثروة سواء من خلال الارسالية أو غيرها من آليات التوزيع (مثل « الحلوان » في الأوقات

المتأخرة) ، وترتب على ذلك الادراك أن أصبح لزاماً على البيوت المتنافسة أن تدخل في حرب تصفية دائمة إما وصولاً الى السلطة المطلقة أو حفاظاً عليها - بل ، ليس من المستبعد أن يكون قد أصبح لزاماً حتى على البيوت الأقل طموحاً أو تنافساً أن تدخل طرفاً في ذلك الصراع، وأن تبني حداً أدنى من القوة العسكرية يحفظ لها موقعها الطبقي ويجنبها فقدها . من هنا نقول أنه وإن صح أن الانفاق الاستثماري كان أمراً غير متوقع مع انتشار الصراعات العسكرية وانعدام الاستقرار والأمن ، إلا أن تلك الحالة عيبتها نشأت بصفة عضوية من بذور النظام ذاته وبشكل يجعلنا نقرر أنه كان من غير الممكن لذلك النظام الذي قام على سيطرة العسكريين المستجلبين من خارج البلاد أن يتحول هؤلاء الى مستثمرين وتجار، طالما توفرت لهم السيطرة على تكريس آلة القهر العسكرية في ظل نظام أخضع المصادر الأصلية للثروة وتوزيع انتاجها للسيطرة المركزية لأداة الحكم البيروقراطية العسكرية .

الخلاصة

اشتدت حدة التناقض بين السلوك النمطي للقوى الحاكمة وبين المصالح بعيدة المدى للبلاد في أواخر القرن الثامن عشر . إذ خضعت المصادر الأصلية للثروة في مصر لسيطرة الأكثر قوة من البيوت المملوكية في أواخر القرن الثامن عشر ، وذلك بعد أن اختل ميزان شرائح الطبقة الحاكمة لصالح أمراء المماليك وتمكنوا من فرض السيطرة على أغلب القوات العسكرية عثمانية الأصل، ومن ثم احتكار الأداة الادارية وأداة القهر في ظل نظام يكرس السيطرة على مصادر الثروة للمسيطر على هاتين الأداةين . وقد ترتب على تلك السيطرة أن استقطب أمراء المماليك ايرادات ضخمة تجلبت في تركيز هائل للثروات في أيديهم ، وترتب عليها كذلك أن تمكنوا من توجيه انفاق الخزنة العامة بما يتفق

ومصالحهم الطبقية . وقد ترتب على اختلال ميزان القوى لصالح المالك بوجه عام أن تأثر نمط انفاق أمرائهم باحتدام المنافسة بين البيوت المتصارعة من أجل الأفراد بالسيطرة على مصادر الثروة وتكريس التميز الطبقي ، مما جعلهم يعطون الأولوية للانفاق الحرى الذى استنزف مواردهم المالية الخاصة فلجأوا الى استخلاص موارد مالية اضافية عن طريق غير نظامى ، فكثرت حوادث الضرائب الجزافية والمصادرات . أما إنفاقهم المدنى ، فقد سيطر عليه الانفاق الترفى من ناحية والمظهري بغرض المحافظة على شرعية مزعومة من ناحية أخرى واختفى الانفاق الاستثمارى أو كاد .

وقد تمخضت تلك السيطرة على مصادر الثروة من جهة واستنزافها من جهة أخرى، أن ضربت إمكانية نشوء طبقة برجوازية مستقلة كما سنعرض فى الفصل التالى .

هوامش الفصل الثالث

- ١ - الجبرقي ، جوهر وآخرون ، ج ٣ ، ٦٥ .
 - ٢ - Sonnini, II, 275 .
 - ٣ - Cezzar Pasha, 24-25 .
 - ٤ - سبقت الإشارة الى احتفاظ فرقتي العزب والانكشارية باستقلال نسبي عن البيوت المملوكية المتنافسة . وبينما قد يفيد البحث التفرع الى الأصل التي استمدت الفرقتان رجاها منها ، فالدلالات الاقتصادية من حيث وسائل استيلائهم على فوائض الانتاج وأنماط سلوكهم الاقتصادي تبدو مماثلة لما يتناوله تحليلنا هنا لأمراء المماليك . وسوف نوضح جانباً من ذلك في بعض مائلي من هوامش .
 - ٥ - Cezzar Pasha, 24-25 .
 - ٦ - الجبرقي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٤٤٠ .
- Huseyn Efendi, 36, 74-82, Cezzar Pasha, 24-25, 28, Sonnini, II, 267.
- « البكوية » لقب عثماني الأصل ، منح لقادة الأقاليم في النظام الاقطاعي العثماني ، واستخدمه العثمانيون في مصر فأطلقوه على المعينين في المناصب الادارية الرئيسية بها والذين كانوا يعينون أول الأمر من قبل الطبقة الحاكمة في الآستانة. فلما بدأ أمراء المماليك يستولون على تلك المناصب منذ أواخر القرن السابع عشر (باستثناء منصب « الكتبخدا » ومناصب « القباطنة ») درج الأمر على استخدام لقبى « أمير » و« بك » كل منهما بدلا من الآخر .
- ويوضح ستانفورد شو أن مناصب البكوية صنفت الى درجتين منذ بدايات القرن السابع عشر ، ضمت الأعلى منهما مناصب « الدفتردار » ، و« أمير الحج » ، « والحكام » ، و« القباطنة » وتلقى شاغلوها ايراداً سنوياً تراوح مابين مائتين وخمسين ألف بارة وثلاثمائة ألف بارة ، والأدنى منهما اقتصرت على حاملي لقب « الكاشف » ، وتلقى كل منهم ايراداً سنوياً تراوح مابين مائة وخمسين ألف بارة ومائتى ألف بارة .

وقد أشرنا في هامش سابق الى ان « الدفتردار » كان المدير الفعلي للخزانة العامة في مصر حتى فوضت مسئولياته الى « الروزنامجي » في عام ١٦٠٨ فتحول منصبه الى منصب يسمى مجرد من النفوذ الفعلي . (Huseyn Efendi, 107)

أما « أمير الحج » (أنظر الهامش رقم ١٠ المذيل للجدول رقم ١) فتركزت مهامه في تنظيم وقيادة وإدارة شؤون قافلة الحج السنوية ، فكان عليه أن يدير مدها بالمواد التموينية اللازمة وأن يرتب أمور الدفاع عنها فيعقد الاتفاقات ويمنح الهبات الضرورية لقبائل البدو للدرء خطر إغاراتهم وان يحمل « الكسوة » و« الصرة » (المنحة المالية الى أهل المدن المقدسة) ويؤمن وصولها الى الأراضي المقدسة (Huseyn Efendi, 174-175) .

وكان لقب « الحاكم » يحمله حكام الأقاليم المصرية الأكبر حجماً والأكثر ثراء ودرأً للإيرادات والأرباح ، وهى أقاليم جرجا والغربية والشرقية والمنوفية ، وضم إليهم أحياناً إقليم البحيرة . (Huseyn Efendi, 82) .

كما كان لقب « القبطان » (أنظر الهامش رقم ١٥ الملحق بالفصل الثانى) يمنح لقادة الأسطول المتمركز في موانئ الاسكندرية والسويس ودمياط – رشيد ، وكان للأخيرين منها قبطان واحد . (Huseyn Efendi, 80-81) .

هذا عن المناصب الأعلى .

أما لقب « الكاشف » والذي شغل حاملوه درجة إدارية أدنى من المناصب السابقة فقد أطلق في القرن الثامن عشر على عدد من أتباع الأمراء بلغ ستين أو سبعين شخصاً وكانوا يلون الأمراء مباشرة في الرتبة بدخل البيوت المملوكية المختلفة . وكان الكشاف يأتون من المماليك العبيد الذين يعتقهم الأمراء ، وكونوا فيما بينهم المنبع الذى غذى الهيئة المملوكية بأمراء جدد . وكانت المناصب المتاحة أمام هؤلاء تشمل حاكمية (أو بالأحرى كشافية) ستة وثلاثين إقليماً من الأقاليم الأقل شأناً عن تلك التى قام عليها حاملو لقب « الحكام » ، كما أتاحت لهم مناصب إدارية مختلفة في قرى عديدة بالصعيد . وقد حصل الكشاف على إيراداتهم من الأمراء المتبوعين لهم وليس من الخزانة العامة (Huseyn Efendi, 78-79) .

ونلاحظ أن ستانفورد شو لا يضمن هذا العرض منصب « شيخ البلد » ، وهو رأس الأداة الحاكمة . بالفعل ، وكان الاستيلاء عليه بمثابة التوقيع العملي لأكثر أمراء المالكات قوة ونفوذاً . ولعل عدم تضمينه في العرض السابق يعنى ان المنصب قد نشأ خارج الهيكل الادارى العثماني كإفراز محلي لمنصب يوازي منصب « الوالي » العثماني بعد أن ضعف الأخير وأصبح وجوده صورياً مجرداً . ونلاحظ أن منصب « شيخ البلد » كان يليه في الأهمية والنفوذ منصب « أمير الحج » ، وكان الأخير يختار عادة من معاونين الرئيسيين للأول .

كذلك نلاحظ أن شو لا يحدد ضمن الرتب المذكورة - سواء منها الأعلى أو الأدنى - منصب « الكتبخدا » برغم إشارته له في صورة عابرة كأحد المناصب العثمانية التي ظل العثمانيون محتفظين بها بعد تفشى سيطرة الأمراء على بقية المناصب . و« الكتبخدا » كما يذكر شو في موضع منفصل - كان من البطانة الخاصة للوالي العثماني ومن آل بيته ، يصطحبه أينما خدم في أرجاء الامبراطورية ، ويقوم بالاشراف على شئونه الخاصة من ادارة بيته والتأكد من تحصيل ايراداته الخاصة في الموعد المحدد وخلاف ذلك من أمور . ويبدو لنا من ذلك الوصف أن منصب « الكتبخدا » لم يكن منصباً تنفيذياً مؤثراً في تسيير أمور الدولة ، اللهم الا اذا استمد من تبعيته للحاكم نفوذاً فعلياً تعدي به الصلاحيات التي يعينها ضمناً الوصف السابق لمسؤولياته . (Huseyn Bfendi, 74-75) .

- ٧ - Cezzar Pasha, 23-25, 29-31
- ٨ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٤٣٠ - ٤٣٥ و ٤٨٠ - ٤٨٥ و ٥١٢ ، ج ٢ ، ١٢٣ - ١٢٥ و ٤٤٤ - ٤٥٠ .
- ٩ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٤٢ - ٤٣

Shaw: "Landholding....". 96

بينما ستانفورد شو أن شاغل مناصب البكوية (أنظر الهامش رقم ٦ أعلاه) وأفراد الأوجاقت العسكرية المختلفة (أنظر الهامش رقم ١٣ بالفصل الأول) كان محظوراً عليهم في الأصل أن يتولوا التزام أى مقاطعة على الإطلاق أو أن يتلقوا ايرادات من الأراضي الزراعية ، فكانت راتباتهم اليومية وما ارتبط بها من مؤن عينية (أنظر الهامش رقم ٩ المذيل للجدول رقم ١) مصدر الدخل المسموح به .

وتغير الحال مع بدء سيطرة أمراء المماليك على مناصب البكوة في القرن السابع عشر ، فتمكن البكوات الأمراء مع تصاعد نفوذهم من إرغام الباب العالي على منح التزامات الأراضي الزراعية لهم ، ثم صار أغلب متعهدي المقاطعات في أواخر القرن الثامن عشر من رؤساء واتباع البيوت المملوكية ومن أفراد الأوجاقات العسكرية والتي اخترقت تلك البيوت صفوف أغلبها .

وبلغت سيطرة أمراء المماليك والعسكر حداً جعلهم ينتزعون اعترافاً وتقنياً بحق توريث المقاطعات لأفراد من بيتهم أو أوجاقهم دون اضطراب الى التنافس عليها مع آخرين في مزاد عام كما كانت آليات انتقال المقاطعات تقتضى وقتها (أنظر الهامش رقم ١٢ أدناه) فصار ذلك التوريث ممكناً مقابل دفع رسم للوالى العثمانى بلغ ثلاثة أمثال الفائض السنوى المعلن وسمى بـ « بدل المصلحة » ، ودرج الناس على تسميته « الحلوان » (Huseyn Efendi, 141) .

١٠ - الجبرقى ، دار الفارس ، ج ١ ، ٣٦٤ .

ويذكر محمد رفعت رمضان (أنظر قائمة المراجع) أن على بك الكبير سيطر على مقاليد الأمور شيخاً للبلد من عام ١٧٦٠ حتى مارس من عام ١٧٦٧ ، ثم خسر المشيخة وخرج من مصر لكنه عاد إليها مظفراً مرة أخرى بعد خروجه بسبعة أشهر ، وظل متبواً ذلك المنصب حتى ابريل ١٧٧٢ حين اضطرب الى الفرار لتجميع قوة تمكنه من مجابهة محمد بك أبى الذهب ، مملوكه السابق الذى قاد قواته أول الأمر ثم انقلب عليه . وتقاتلت القوتان في موقعة خسرها على بك وتوفى على إثرها في مايو ١٧٧٣ .

١١ - الجبرقى ، دار الفارس ، ج ٢ ، ٤٢ - ٤٣ .

١٢ - كان نظام انتقال المقاطعات يقتضى أن ينزع الالتزام عند وفاة الملتزم أو إخفاقه في ادارة المقاطعة أو دفع خراجها ، ثم أن يعهد بالمقاطعة الى ملتزم جديد بواسطة مزاد بين المتنافسين . ويذكر ستانفورد شو أنه بينما كان من الشروط ألا يقل مقابل الانتقال عن ثمانية أمثال متوسط الفائض السنوى ، إلا أنه قلما بلغ في الحقيقة ثلاثة أمثال الفائض السنوى المعلن والذى كان يقل بدوره كثيراً عن الفائض المتحقق سنوياً بالفعل . (Huseyn Efendi, 140-141) .

١٣ - فلنؤكد على التمييز بين ما آل الى الخزانة من إيرادات عن مقاطعاتها من ناحية وبين ما

آل الى الأمراء عن مقاطعاتهم الخاصة ومن ممارساتهم الأخرى من ناحية ثانية وما استخلصه القائمون بالتحصيل لأنفسهم في كلا النوعين من المقاطعات من ناحية ثالثة، ولنوضح أن ماوصفناه من قبل من سيطرة الأمراء على مقاطعات الخزانة عن طريق تكليف اتباعهم بها لم يترتب عليه الانتقاص من الإيرادات المرتبة للخزانة أو حرمانها منها وإنما كان مؤداه تأكيد نفوذهم ومدهم السيطرة على منشأ الثروة بالبلاد ، ثم اتاحة مصدر لمؤلاء الأتباع لحرق أموال اضافية من تلك المقاطعات تفيض على مايرتب للخزانة من إيرادات ، فضلاً عن صيانة النفوذ في توجيه نفقات الخزانة من إيراداتها المحصلة .

١٤ - وردت التقديرات الخاصة بإجمالي رواتب الأمراء في :

Shaw: The Financial, 391-392.

كما وردت في نفس المرجع مناقشة للاصلاحات المالية العثمانية في مصر والسعى من خلالها الى تقليص مبلغ رواتب الأمراء ونسبته إلى إجمالي الإيرادات ..(280-310)

١٥ - Cezzar Pasha, 42-43, Shaw: The Financial....., 268

١٦ - Shaw: The Financial....., 232-237 .

١٧ - Shaw: The Financial....., 7, 400-401.

١٨ - Huseyn Efendi, 58-59, 94, 158-161,

Shaw: The Financial....., 7, 138-141 .

احتكر الانكشارية صناعة العرق والملح . وقد حولوا صناعة العرق الى مقاطعة خاصة في القرن الثامن عشر ، ويبدو أنهم قاموا بتجزئتها الى عدة التزامات كل في مدينة من المدن الرئيسية ، إذ يذكر شو (Huseyn Efendi, 158-159) أنهم عهدوا بالتزام تلك المقاطعة الى أفراد من اليهود والمسيحيين في كل من مدن مصر الرئيسية . ومن غير الواضح لنا ما اذا كانت تلك المقاطعة اقتصر على صناعة العرق أم أنها تعدت المدلول الحرفي الى سائر أصناف المشروبات الروحية . وقد تلقى الانكشارية مدفوعات من الملتزمين نظير الاسناد الضريبي بلغ اجمالها حوالى ثلاثة ملايين وخمسمائة الف بارة سنوياً ، أى أنهم تلقوا من تلك المقاطعة وحدها مايعادل ٣ ٪ من إجمالي إيرادات الخزانة العامة في في النصف الأخير من القرن الثامن عشر (أنظر الجدول رقم ١) .

كذلك يذكر شو أن الانكشارية كانوا يمهّدون بالتزام « مقاطعة الملح » الى ملتزم من اليهود أو المسيحيين المقيمين في الاسكندرية (Huseyn Efendi, 160-161) ، ومن غير الواضح لنا سبب قصر ذلك الالتزام على طائفة دينية معينة . وكانت صناعة الملح يسيطر عليها أوجاق العزب حتى عام ١٦٩١ حين دانت السيطرة عليها للانكشارية . ويذكر شو (Huseyn Efendi, 160-161) أن إيرادات الانكشارية من تلك المقاطعة بلغت حوالى مليوناً وستائة وعشرين الف بارة سنوياً عند مجيء الحملة الفرنسية ، أى أقل قليلاً من نصف ما استجلبوه من صناعة العرق والتي رأينا ضخامة نسبتها الى إيرادات الخزائن العامة . ونلاحظ هنا أن جامعي الملح كانوا يبيعونه للملتزم على المقاطعة بمبلغ ١١١ بارة للأردب الواحد ، وأن الأخير كان يتمتع بالحق في بيع الملح المصنع بمبلغ ١٤٤ بارة للأردب في القاهرة ونواحها ، و ٢٠٠ بارة للأردب في الأماكن الأخرى .

ونلاحظ أن ستانفورد شو لا يحدد الأطراف المستفيدة بداخل كل أوجاق من الاحتكار المذكور وإنما يشير الى الأوجاق بلفظ جامع كررناه هنا .

Shaw: The Financial....., 138.

١٩ -

Cezzar Pasha, 34-36

٢٠ -

ويذكر شو في هامش على التقرير السابق أن قيمة الكيس المصرى بلغت خمساً وعشرين ألف بارة فضية . (P. 10) .

٢١ - ذكرت تلك التقديرات في المرجع التالى : Gibb, 1, 264-265

٢٢ - الجبترى ، دار الفارس ، ج ١ ، ٣٦٣ .

٢٣ - الجبترى ، دار الفارس ، ج ١ ، ٣٥٨ .

« النواخذ » أصل مفرد لها باللغة الفارسية « ناخدا » وتعنى ربان السفينة (الجبترى ، جوهر وآخرون ، ج ٣ ، ٤٩) . وقد أشرنا من قبل الى أن مصطلح « مال البهار » كان يطلق على خراج جمرك السويس ، والأرجح أن « كاتب البهار » كان المسئول عن قيد الإيرادات هناك .

٢٤ - الجبترى ، جوهر وآخرون ، ج ٤ ، ٥٦ .

٢٥ - الجبترى ، جوهر وآخرون ، ج ٥ ، ٣٠٥ - ٣٠٦ .

نلاحظ أن الحادثة المروية هنا وقعت في عام ١٢١٦ هـ ، أى في الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر ، وإن كانت إشارة الجبترى الى أن تلك الحادثة تندرج ضمن

« عاداتهم القبيحة » تفيد بوقوع تصرفات مماثلة لها في الأوقات السابقة والتي هي محل الدراسة هنا .

و«علائف» العسكر تشير على الأرجح الى المؤن العينية التي كانت تصرف لهم من المخازن والصوامع الامبراطورية شأنهم في ذلك شأن كل من تلقوا أجوراً نقدية من الخزانة العامة (أنظر الهامش رقم ٩ المذيل للجدول رقم ١) .

٢٦ - الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج ٥ ، ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٢٧ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ١٩٢ ، وحوادث أخرى مشابهة في نفس الجزء ، ٢٥٠ - ٢٧١ .

٢٨ - Shaw: The Financial....., 9, 313-315 .

٢٩ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ١٦٠ .

٣٠ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٣١٢ .

٣١ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٤٨٥ .

ربما كان الجبرتي في قوله « حتى حصل ما حصل ونزل بهم والناس منازل » يشير الى الحملة العثمانية التأديبية التي أعقبت رفع أحمد باشا الجزار تقريره الى الباب العالي ، أو ربما كان يقصد التدهور المضطرد في أحوال المعيشة بصفة عامة في أواخر القرن الثامن عشر ، وربما قصد كلا المعنيين .

٣٢ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ٢ ، ٨٢ - ٨٣ .

يفيدنا بعض المحققين أن اليسرجي تعني تاجر الرقيق وكل « أخيلد أسير » ، فاليسرجي هو النحاس أى يباع العبيد . (الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج ٣ ، ١٥٥) وقد حاولنا الاستدلال على الحدود و/أو الأسماء المستخدمة الآن للمناطق المسماة « بلاد الأرثوود وجبال الروملی » فلم تتمكن من ذلك :

٣٣ - الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج ٣ ، ١٥٢ - ١٥٣ .

أنظر أمثلة من سلوك مماثل في :

الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٢٨٤ - ٢٨٩ ، ٣١٠ و ٤٩٤ - ٤٩٥ ، ج ٢ ، ١٦٤ - ١٦٥ .

٣٤ - أخذنا المعلومات الخاصة بالضريبة العينية من :

Huseyn Efendi, 52-45, 61-62, Shaw: The Financial....., 80.

أما أسعار القمح ، فقدرها جيرارد وقتها بمائة وخمسين بارة للأردب الواحد ويذكر
التقدير في المرجع التالي :

. Huseyn Efendi, 121.

٣٥ - أنظر أمثلة من كل أصناف المدفوعات والنفقات في الأجزاء التالية من الجبرتي :
الجبرتي ، دارس الفارس ، ج ١ ، ٥١ - ٥٢ و ٨١ و ٢٨٨ - ٢٨٩ و ٣١١ و ٣٦٧
و ٣٧٢ و ٤١٩ و ٤٣٠ - ٤٣٧ و ٤٨٠ - ٤٨٥ و ٤٩١ - ٤٩٦ .

٣٦ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٢٨١ ، ٣٧٢ .

. Sonnini, I, 272, 280.

- ٣٧

الفصل الرابع

الإخفاق التاريخي

و ضرب إمكانيات النهوض

نحاول أن نتلمس في هذا الفصل كيف تفاعلت العوامل الممثلة في السيطرة المركزية على مصادر الثروة والممارسات التي طبعت جبي الضرائب وحرث الأموال والسلوك الاقتصادي للطبقة الحاكمة ، لتؤثر مجتمعة على الموارد الانتاجية للبلاد من ناحية والتركيب الطبقي من ناحية أخرى .

أولا : تدهور أحوار القاعدة المادية للانتاج

١ — ضعف الانفاق الحكومي على الموارد الانتاجية :

يبدو أن الأموال التي أنفقتها الأداة الحاكمة على صيانة وتنمية الموارد الانتاجية للبلاد اقتربت بالكاد من نسبة الواحد في المائة فقط من اجمالي إيرادات الخزنة ، وينبنى ذلك التقدير على البيانات المحدودة المتاحة من الميزانيات القليلة المتوفرة الخاصة بالنصف الأخير من القرن الثامن عشر . (أنظر الجدول رقم ٤) .

إذ نستنتج من تحليل تلك البيانات أن الطبقة الحاكمة استولت على النصيب الأعظم من تلك الإيرادات والذي بلغ حوالى ٨٤ ٪ منها ، أدرج أغلبه فى بنود حملت مسميات تفيد بذلك المعنى بصورة واضحة وأدمج بعضه فى بنود أخرى تحت مسميات مختلفة .

كذلك يتضح لنا أن الانفاق على أغراض تتعلق بالحفاظ على بعض المظاهر الدينية التى حاول النظام الحاكم أن يستمد شرعيته منها بلغ فى المتوسط نسبة أكبر قليلا من ١٥ ٪ من اجمالى الإيرادات ، فبقى مبلغ نسبته أقل من ١ ٪ للانفاق على الموارد الانتاجية للبلاد كما ذكرنا من قبل . والجدير بالملاحظة هنا ن الميزانيات المتاحة شملت بندا اطلق عليه « نفقات على أغراض فى مصر » بالرغم من أن هذا البند كان يمثل نسبة محدودة من إيرادات الخزنة العامة (حوالى ٤,٥ ٪ فى المتوسط أنظر الجدول رقم ١) إلا أنه احتوى أجزاء من النفقات الموجهة للاستخدامين الرئيسيين للإيرادات (أى للطبقة الحاكمة والمظاهر الدينية) استوعبت أكثر من ثلاثة أرباعه . (أنظر الجدول رقم ٤) .

٢ — تناقض الانفاق الحكومى مع الاحتياجات الحقيقية للبلاد :

فإذا أردنا تقييم أثر ضالة الانفاق الحكومى على الموارد الانتاجية للبلاد ، سب علينا أن ننظر الى تلك الموارد وطبيعتها ، ومدى اعتماد أحوالها على توفر رعاية مركزية منتظمة .

ويبدو أن عناصر أو مكونات القاعدة الانتاجية للبلاد وقتها يمكن أن نلخصها دون اخلال جسيم بالواقع فى موردين اثنين : هما الأرض الزراعية والطرق التجارية ، فما عدا ذلك من أنشطة قام بصفة أساسية إما على المجهود

البشرى أو على أصول مستمدة من الزراعة والنقل التجارى .

فإذا نظرنا الى أحوال الأرض الزراعية فى مصر ، وجدناها تعتمد بصورة مطلقة على الرى النبل ، ووجدنا أن الظروف الطبيعية تفرض ضرورة تنظيم الرى بصورة تأخذ فى الاعتبار التقلبات الموسمية لذلك المصدر الرئيسى - أو قل الوحيد - للمياه (أى الفيضان) ، والتي تجعل كميات المياه المتاحة غير معلومة أو مؤكدة . هذه واحدة . كذلك يبدو أن طبيعة ذلك المورد المالى وكونه شريطاً محدوداً فى استطالة تفرض القيام باستثمارات فى حفر وصيانة المجارى المائية (القنوات والترع والمصارف وغيرها) لمد شبكة الرى الى أنحاء الأراضى الزراعية الصالحة ، ناهيك عن التوسع فى تلك الأراضى أو الاضافة لها وقد أوضح أحد الاقتصاديين الأجانب (كروتشلى) الذين كانت لهم مؤلفات عن الاقتصاد المصرى فى أوائل القرن الحالى تلك الاعتبارات فى فقرتين يمكن ترجمتهما كما يلى :

« أدت [حتمية] إقامة نظام الرى فى مصر على قاعدة مصنوعة غير طبيعية ، والاعتماد المطلق للزراعة على [تنظيم] الرى الى بديهة مقررة ، كثيراً ما يتكرر ذكرها بصورة أو بأخرى ، ومؤداها أنه ليس فى بلاد العالم بلد آخر مثل مصر يتوقف رخاؤه على حكومته بتلك الصورة المباشرة السريعة .

« وإذا ما أردنا النجاح للرى [فى مصر] ، فلا بد من تنظيمه وإدارته بواسطة ادارة مركزية قوية تضع نصب عينها المصلحة العليا للبلد بأكمله . إذ أن الضرورة لا تتوقف عند إنشاء الشواطىء والقنوات والمصارف والسدود ، والتي بطبيعتها تصبح فى حاجة الى الاصلاح اذا أهملت ولو لفترة قصيرة ، ولكن لابد أيضاً سنة بسنة وتبعاً لحال الفيضان من التحكم فى توزيع المياه بما يحقق أقصى فائدة ممكنة للبلد ككل »^(١) .

أما التجارة المصرية ، فقد اعتمدت على عدة طرق نيلية وبرية^(٢) انتقلت السلع عبرها من الموانئ والمدن الرئيسية وأرجاء البلاد المختلفة الى القاهرة ، فكان يتم نقل البضائع التي تصل الى موانئ الاسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط الى القاهرة بواسطة الملاحة النيلية ، والبضائع التي تصل الى ميناءى السويس والقصور بواسطة القوافل عبر الطرق الصحراوية ، أما القوافل القادمة من مناطق في وسط افريقيا والسودان فقد حملت بضائعها الى القاهرة براً عبر مصر العليا (الصعيد) . كانت تلك الطرق بمثابة الشرايين التي تندفق عبرها حركة التجارة ، فكان حفظ النظام وتحسين نظم النقل فيها كلها ضرورياً لصيانة التدفق التجارى .

ويسوقنا ذلك العرض لطبيعة القاعدة الانتاجية للبلاد وما تمليه تلك الطبيعة من أهمية القيام بإنفاق حكومى ضخم لصيانة وتنمية القدرة الانتاجية - بل مجرد الحفاظ عليها من التدهور - الى أن نلاحظ أن نمط تصرفات الخزنة فى الإيرادات كان يبدو وكأنه يشوبه إهمال جسيم لوظائفها الأساسية إزاء الموارد الانتاجية ، إذ أن تحليل مفردات الانفاق الحكومى على الموارد الانتاجية يظهر لنا اقتصره على توجيه نسبة من الإيرادات تذهببت حول ٧ ٪ لصيانة شبكة الرى القائمة ، بينما خلا ذلك الانفاق تماماً من ذكر أى أعمال رى جديدة ، كذلك لم يتضمن أى اعتماد مستقل لتحسين الطرق التجارية وصيانتها ومن أمثلة تلك المفردات^(٣) ، فى أواخر القرن الثامن عشر مايلى ، ونلاحظ ثبات قيمة نسبة الاعتماد المخصص لها من إجمالى الإيرادات (أنظر الجدول رقم ١) :

ميزانية ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م	النسبة الى القيمة بالآلاف البارت	النسبة الى القيمة بالآلاف البارت	النسبة الى القيمة بالآلاف البارت	النسبة الى القيمة بالآلاف البارت	ميزانية ١٣٠٠ هـ / ١٧٨٥ م
صيانة الخلجان (القنوات) الرئيسية والسدود في الأقاليم صيانة السواقي الرئيسية في مصر القديمة ومد السقاء بالمياه العذبة للسويس	٨٦١	٠,٧	٨٦١	٠,٧	
صيانة بيوت الجمارك في دمياط والاسكندرية وتوفير مياه عذبة للملء صهاريج « القرافة الكبرى » (الجبانة) في القاهرة	١٣٨	٠,١	١٣٨	٠,١	
صيانة الخلجان (القنوات) المختلفة في القاهرة ودمياط	٤٦	٠,٠٤	٤٦	٠,٠٤	
	٢٥	٠,٠٢	٢٣	٠,٠٢	

وبالرغم من عدم توفر مؤشرات عن الحد الأدنى الضروري من الانفاق لتنظيم وصيانة وتنمية كل من الأراضي الزراعية وشبكة الري القائمة من ناحية والطرق التجارية من ناحية أخرى بحيث نقارن ذلك الحد الأدنى بالانفاق الحكومي الفعل أو التقديرى المبين اعلاه ، إلا أننا نرى أن التواضع البالغ الذى بينناه فى نسبة ما يتفقها الجهاز الحاكم على الموارد الانتاجية مما يتجمع لديه من أموال جاء أغلبها من ضرائب واستقطاعات باهظة مأخوذة من حصيله استخدام تلك الموارد ، ليس إلا انعكاساً كمياً للعلاقات الطبقيه السائدة التى

أشرنا إليها في أجزاء سابقة ، والتي ستتكرر الإشارة لها فيما بعد ، وهو مؤشر يعكس في مجمله كيف تناقضت أولويات الحكم ورؤية الطبقة الحاكمة لمصالحها مع المصالح الانتاجية للبلاد في المدى الأبعد ، فوظفت الطبقة الحاكمة أداة الأنفاق العام لتخدم على مصالحها العاجلة قصيرة المدى .

ويبدو أن نظام الالتزام في المقاطعات الريفية ربما ساعد أحياناً وفي بعض نواحيه على التعويض الجزئى من ضالة الأنفاق الحكومى على الأعمال الزراعية ، إذ قام ذلك النظام نظرياً على تفاهم مشترك بأن الملتزمين - كل في مقاطعته - ينهضون بمسئولية الحكومة^(٤) . ومع عدم خوضنا البحث في الدلالات العملية لذلك التفاهم النظرى أو لحدوده وصرامته والتطبيق الفعلى له ، إلا أننا نتصور ان الحد الأدنى الذى كان لابد أن يعنيه ذلك ضمناً - (إذا صح تطبيقه) - يشمل الصيانة الاعتيادية للأرض ولشبكة الري ، وربما تضمن أيضاً دوراً في حفظ الأمن بداخل نطاق مايلتزم عنه من أراض في حدود المقاطعة . فإذا صح ذلك التصور ، فقد يكون قد ساعد في توفير بعض الاستقرار في بعض النواحي وفي بعض الأحيان . ومع ذلك ، فمن الصعب تصور أن المجهودات الفردية المنعزلة بداخل كل مقاطعة منفردة قد نهضت كبديل كامل عن المجهود المركزى المنظم وبصورة كافية أو مقبولة ، حتى في تلك الأوقات التى اتسمت باستقرار سياسى نسبى ترتب عليه احتفاظ الملتزمين بمقاطعاتهم لفترات طويلة وبكيفية ربما اقتربت بهم من شكل الملكية الخاصة المستقرة ، ووفرت ما يرتبط بتلك الملكية من حوافز . فالتأمل في القول المقتطف من كروتشلى في صدر هذا الفصل يفضى بنا الى اقتناع بأن الجهود الفردية ، سواء بذها ملتزمون أو ملاك مكتملو الملكية الخاصة ، يصعب أن تسفر عن تنظيم أعمال الري (ومن ثم الزراعة) على نطاق البلاد بأكملها ، بما يدرأ أخطار شح الفيضان أو غزارته ، وبما يجنب البلاد التعرض الى تذبذب حاد في أحوالها مع تذبذب مستواه . بل

هناك من الحوادث ما يؤكد اخفاق بعض مشروعات الرى الأساسية بسبب عدم انتظام الحكام فى الاشراف على تطور العمل بها ، مما أجهض الموارد الطائلة والجهد البشرى المبذول فى أعمال ظلت غير مستكملة .

» (وفى شهر شعبان) [١٢٠٧ هـ] وقع الاهتمام بسد خليج الفرعونية بسبب احتراق البحر الشرق ونضوب مائه ، وظهرت بالنيل كثبان رمل هائلة من حد المقياس الى البحر المالح ، وصار البحر الغربى سلسلول جللول تخوضه الأولاد الصغار ولايمر به الا صغار القوارب ، وانقطع الجالب من جميع النواحي إلا ما تحمله المراكب الصغار بأضعاف الأجرة ، وتعطلت دواوين المكوس فأرسلوا الى سد التبعة رجلا مسلمانى ، وصحبته جماعة من الافرنج ، وأحضروا الأخشاب العظيمة ورتبوا عمل السد قريباً من كفر الحضرة ، وركبوا آلات فى المراكب ودقوا ثلاثة صفوف خوابير من أخشاب طوال ، فلما أتموا ذلك كانت الصناعات فرغت من تطبيق ألواح فى غاية الثخن شبه البوابات العظام ، وهى مسمرة بمسامير عظيمة ملحومة بالرصاص وصفائح الحديد مثقوبة بثقوب مقاسة على ما يوازىها من نجوش منعوشة بالخوابير المركوزة فى الماء فإذا نزلوا ببوابة الحموها بتلك الخوابير وتبعتهم الرجال بالجواىى المملوءة بالحصى والرمل من أمام ومن خلف ، وتبع ذلك الرجال الكثيرة بغلقان الأتربة والطين ففعلوا ذلك حتى قارب التمام ، ولم يبق إلا اليسير ، ثم حصل الفتور فى العمل بسبب أن المباشر على ذلك أرسل لمراد بك بالحضور ليكون إتمامها بحضرته ويخلف عليه ويعطيه ما وعده به من الإنعام ، فلم يحضر مراد بك وغلبهم الماء وتلف جانب من العمل ، وكان أيوب بك الصغير حاضراً وفى نفسه أن لا يتم ذلك لأجل بلاده فأصبح مرتحلاً ، وتركوا العمل وانفض الجمع ، وقد أقام العمل فى ذلك من أوائل شعبان الى أواسط شوال ، ثم نزل إليها جماعة آخرون وطلبوا جملة مراكب موسوقة بالأحجار وشرعوا فى عمل سد المكان

القديم عند فم التربة ، ودقوا أيضاً خوابير كثيرة وألقوا أحجاراً عظيمة وفرغت الأحجار فأرسلوا بطلب غيرها فلم تسعفهم القطاعون فشرعوا الى هدم الأبنية القديمة والجوامع التي بساحل النيل ، وقلعوا أحجار الطواحين التي بالبلاد القريبة من العمل ، واستمروا على ذلك حتى قويت الزيادة ولم يتم العمل ورجعوا كالأول ، وذهب في ذلك من الأموال والغرامات والسخرات وتلف من المراكب والأخشاب والحديد مالا يحصى ولا يعد»^(٥) .

ونلاحظ هنا أن الجبرتي أشار في موقع تال الى أن محمد على قام في عام ١٢٢٤ على بناء سد فيما يبدو أنه نفس موقع ذلك المشروع المجهض ، وأنه أكمله في نفس العام^(٦) .

لقد كان لابد أن يؤدي إهمال أعمال الري من قبل الحكومة الى الاعتماد على ما تجود به قوى الطبيعة بصورة كادت أن تكون مطلقة ، والى وقوع الزراعة المصرية تحت رحمة التغير في احجام الفيضانات من عام الى آخر ، مما جعل البلاد تشهد أعواماً عانت فيها بشدة من ندرة الغذاء وارتفاع الأسعار وعدم توفر الخامات للصناعة المحدودة القائمة. ويتعدد في الجبرتي ذكر حوادث من هذا القبيل^(٧) ، نورد منها على سبيل المثال ذكر ماحدث في عامين من هذه الأعوام :

« وفي هذه السنة [١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م] قصر مد النيل وانهبط قبل الصليبية بسرعة فشرقت الأراضي القبلية والبحرية وعزت الغلال بسبب ذلك وبسبب نهب الأمراء وانقطاع الوارد من الجهة القبلية ، وشطح سعر القمح الى عشرة ريالات للأردب واشتد جوع الفقراء . ووصل مراد بك الى بني سويف وأقام هناك وقطع الطريق على المسافرين ، ونهبوا كل ما مر بهم في المراكب الصاعدة والهابطة»^(٨) .

ثم وصف الجبرقي الأحوال في عام ١٢٠٦ كما يلي :

« وانقضى شهر كيهك القبطي ، ولم ينزل من السماء قطرة ما فحراثوا المزرع ببعض الأراضي التي عطشها الماء وتولدت فيها الدودة وكثرت الفيران جداً حتى أكلت الثمار من أعلى الأشجار ، وإلذى سلم من الدودة من الزرع أكله الفار ، ولم يحصل في هذه السنة ربيع للبهائم إلا في النادر جداً ، ورضى الناس بالعليق فلم يجدوا.التبن وبلغ حمل الحمار من فصل التبن الأصفر الشبيه بالكناسة الذى يساوى خمسة أنصاف قبل ذلك مائة نصف، ثم انقطع مرور الفلاحين بالكلية بسبب خطف السواس وأتباع الأجناد ، فصار يباع عند العلافين من خلف الضبة كل حفان بنصفين الى غير ذلك »^(٩) .

ومن ناحية أخرى ، فقد ترتب على إهمال صيانة الطرق التجارية أن تقلصت أداة أخرى من أدوات الانتاج ، فانكمشت الطرق وانكمشت معها الحركة التجارية ، وضاق مورد رئيسي آخر من موارد الثروة . ونجد في مذكرات سويني عن أسفاره إشارة الى كثير من تلك الحالات ، ونقتطف منها فقرة ترجمناها كما يلي :

«ولكن الاهمال البربرى من جانب طغاة مصر قد أذبل مورداً غنياً للرخاء ، إذ تركوا الطمي يتراكم في قيعان القنوات موقفاً حركة الملاحة ، فأرغمت التجارة على هجر سواحل مدينة فوة »^(١٠) .

وقد زاد من ذلك التدهور انتشار القرصنة ، التي نشطت بسبب ضعف قبضة الحكومة المركزية نتيجة الانشغال بالصراعات بين البيوت المملوكية وما ارتبط بذلك من اضطراب سياسى^(١١) .

ويخبرنا الجبرقي أن القراصنة تمكنوا من السيطرة في بعض الأحيان على تلك

الأجزاء من أمانة البحرين التي وقعت خارج القاهرة ، وهى مناطق اضطرت الجهاز الحاكم الى القبول رسمياً بأنشطة القرصنة الموجودة بها فى الأوقات التى ضعفت فيها السلطة المركزية واهتزت هيبتها ، فتهاذنت تلك السلطة مع القرصنة سعياً الى حل وسط يحقق المنفعة لطرفيه ويلقى بالعبء على أهل البلاد .

«وفى سنة ١١٣٤ أخذ سالم من محمد بك ابن اسماعيل أمير الحج [المنصب الذى تبوأه أقوى أمراء المماليك] لإجازة بعمار البلاد الذى على البحر وأخذ فى تعمير دور وسائته..فاشتهر ذكر سالم وعظم ، واستولى على خفارة لبحرين ونفذت كلمته بالبلاد البحرية من بولاق الى البغازين وصارت لمراكب والرؤساء تحت حكمه ، وفرض عليها الضرائب الشهرية والسنوية ، وأنشأ دوراً واسعة ويستأنأ به كل أنواع الفاكهة»^(١٢).

وقد سيطرت ظروف مماثلة على الطرق الصحراوية ، حيث هددت الغزوات المتكررة للبدو مرور القوافل التجارية ، وقد ذكر الجبرقى العديد من غاراتهم^(١٣) التى ترجع أنها وجهت ضربات شديدة للتجارة عبر القوافل . ومن ضمن ماورد بالجبرقى إشارة الى غارة رئيسية وقعت فى ١١٩٣ هـ/ ١٧٧٩ م على قافلة من التجار الأوربيين ويبدو أنها أثرت بشدة على الحركة التجارية بين أوروبا ومصر .

وليس من المستغرب وقد أهمل رجال الحكم أمور البلاد وسطوا على أرزاق أهلها أن حذت حذوهم أدواتهم من الجند ورجال الأمن ، فتعددت حوادث سطو هؤلاء على السلع عند ندرتها أو عند توفرها بعد ندرة ، ليضيق الطرق مجدداً على الحركة التجارية :

» (وفيه) [المحرم ١٢٠٧ هـ] وصلت غلال رومية وكثرت بالساحل
فحصل للناس اطمئنان وسكون ووافق ذلك حصاد الذرة ، فنزل السعر الى
أربعة عشر ريالاً للأردب ، وأما التبن فلا يكاد يوجد ، وإذا وجد منه شيء فلا
يقدر من يشتريه على إيصاله لداره أو دابته بل يبادر لخطفه السواس وإتباع
الأجناد في الطريق ، وإذا سمعوا واستشعروا بشيء منه في مكان كبسوا عليه
وأخذوه قهراً ، فكان غالب مؤنة الدواب قصب الذرة الناشف ، ويسرح
الكثير من الفقراء والشحاذين في نواحي الجسور فيجمعون ما يمكنهم جمعه من
الحشيش اليابس والنجيل الناشف ، ويأتون به ويطوفون به في الأسواق
ويبيعونه بأغلى الأثمان ، ويتضارب على شرائه الناس وإن صادفهم السواس
والقواسه خطفوه من على رؤوسهم وأخذوه قهراً « (١٤) .

٣ - تدهور أحوال القوى العاملة المصرية :

أدت المناحرات السياسية التي طبعت القرن الثامن عشر في مصر بطابعها
الى وقوع أفراد الطبقة الحاكمة من أمراء الممالك تحت ضغط احساس
بالاحتياج المستمر لموارد مالية لتمويل تدافعهم على استجلاب الممالك الجدد من
الخارج . وكان تدبير الموارد المالية المطلوبة يصادف صعوبة متزايدة بسبب
التناقض المضطرب في فائض الانتاج نتيجة إهمال الموارد الانتاجية ، مما كان يعنى
تعرض الموارد المالية المتوفرة للطبقة الحاكمة الى النقصان مالم تستقطع من
نصيب القوى العاملة من حصيلة الانتاج - أى ما لم تأت خصماً من العائد
المستحق لرأس المال البشرى وضريبة ضمنية عليه ، وقد قامت أدوات
البيروقراطية (الجهاز الادارى) والقوة القهرية (الجهاز العسكرى)
بالتخديم على مصالح الطبقة الحاكمة في هذا الصدد ، في الوقت الذى افتقر فيه
أهل البلاد في أغلب الحالات الى تنظيم جماعى دفاعى . وكان مؤدى ذلك

السلوك الحاق الضرر بمورد انتاجي رئيسي آخر (القوى البشرية) واستنزافه ، هذا اذا ما نحينا اعتبارات العدالة الاجتماعية جانباً ونظرنا الى تأثير أنماط سلوك الطبقة الحاكمة على القاعدة الانتاجية فحسب . ولنستطرد للحظة هنا لنلاحظ الضرورة المادية لما يطلق عليه أحياناً « عدالة التوزيع » وهي من الاعتبارات التي تدرج عادة ضمن مفهوم العدالة الاجتماعية ، والذي كثيراً ما يطرح بدوره وكأنه يقوم على أساس من التعاطف الانساني فحسب فيضعف ذلك الطرح المضلل (بكسر اللام) أو المضلل (بفتحها) من الاحساس بضرورته المادية وبالأهمية والأولوية الملحقين له .

وقد تحمل الفلاحون وهم الشريحة الأكبر عدداً والأضعف تنظيمياً في الطبقة العاملة المصرية العبء الأعظم منذ البداية ، وتشير الدلائل المتاحة أن ذلك دفع بالزراعة الى حلقة مفرغة . فالاهمال الحكومي للانفاق الضروري للأعمال الزراعية العامة أدى الى تقلص متوسط إنتاجية الأرض الزراعية فتدهورت كمية المحاصيل والايادات المستولدة من أى رقعة زراعية محددة ، فسعى الجهاز الحاكم الى تعويض نقصان الموارد المالية المتجمعة له بالاستقطاع من حقوق أو عوائد الفلاحين العاملين على الرقعة المعنية بالرغم من فقرهم الشديد ، فثقل العبء الواقع عليهم وتدهورت أحوالهم الى مزيد من الفقر وسوء الأحوال الصحية وسلب ذلك من طاقاتهم الانتاجية (متوسط الانتاجية الفردية) وقدرتهم على استيلاء المحاصيل من الرقعة المحددة التي يعملون عليها ، فنقص الانتاج الزراعي مجدداً ، ليشند بطش الطبقة الحاكمة وتلجأ الى توظيف أشرس لأداتها الضاربة حتى تستخلص ما أعادته من أموال (أو أكثر إذا دعت الحاجة) من تلك الرقعة الزراعية المتدهورة انتاجيتها وانتاجية العاملين عليها فيزداد ثقل العبء الواقع على العاملين ، وتدهور الانتاجية الفردية من جديد ويزداد انكماش الايراد الزراعي المتولد من تلك الرقعة فيزداد توظيف الأداة

الضاربة ، وهكذا دواليك . ويرجعنا ذلك العرض الى ملاحظة الأستاذ لهيطة التى أوردناها فى خلاصة الفصل الثانى ، والتى نبه فيها الى دخول البلاد حلقة مفرغة من الانحدار المالى بسبب لإتيان مستغليها على منابع الدخل شيئاً فشيئاً .

وكان يمكن ألا يؤدى التراجع فى انتاجية الأرض من جهة وفى انتاجية الفلاح من جهة أخرى الى تراجع اجمالى الانتاج الزراعى على نطاق البلاد بأكملها وذلك اذا ازدادت كمية أحد العنصرين أو كليهما : مساحة الأرض الزراعية أو عدد العاملين عليها . لكن حجم المساحة الصالحة للزراعة كان ينكمش بسبب إهمال الاستثمارات الضرورية لصيانتها ، وكذلك كان عدد الفلاحين العاملين على الأرض الزراعية يتناقص بتأثير الاجهاد البالغ الذى دفع بهم الى الهجرة فلولا واشتاتاً .

وبإمكاننا أن نجد فى تسجيل المعاصرين لتلك الفترة كثيراً من الاشارة الى هذين الأمرين (إنكماش المساحة وتناقص البشر العاملين عليها) ، إذ يقدر سونينى على سبيل المثال مساحة الأراضى الزراعية التى تعرضت للبوارج بأنها تساوى حوالى ربع المساحة التى كانت تزرع وقت زيارته لمصر ، وذلك فى فقرة ترجمناها كما يلى :

«ولقد أثمر الإهمال والطغيان — المتعادلين فى البربرية — زحف الرمال على أجزاء كانت تغطيها الخضرة من قبل .. تلك الأماكن .. كثيرة الى درجة أنه يمكننا أن نقدر مساحتها دون أن نخشى الخطأ بحوالى ربع المساحة التى تتم زراعتها فى مصر حالياً» (١٥) .

كذلك يشير الجبرقى الى موجات حاشدة من الهجرة من القرى الى المدن ، والتى وقعت فيما يشبه حالات الفرار الجماعى نتيجة الفقر الحاد فى القرى وليس بسبب اغراءات المدن ، أى أن القوى المسببة لها كانت قوى طرد تدفع

للبحث عن مأوى بديل لا قوى جذب تعد المقلبين وتغريهم بمستقبل أفضل .
وتتضح لنا ظروف تلك الموجات البشرية المتحركة في الفترتين التاليتين :

«وانقضت هذه السنة [١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ م] كالتى قبلها، في الشدة والغلاء ، وقصور النيل ، والفتن المستمرة وتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء وانتشار أتباعهم في النواحي لجبى الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع المظالم ، ويسمونها مال الجهات ورفع المظالم والفردة حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وطفشوا من بلادهم ، فحولوا الطلب على الملزمين وبعثوا لهم المعينين في بيوتهم ، فاحتاج مساكين الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك مع ما هم فيه من المصادرات الخارجة عن ذلك وتتبع من يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب أضعاف مايقدر عليه ، وتوالى طلب السلف من تجار البن والهار عن المكوسات المستقبلية ، ولما تحقق التجار عدم الرد استعوضوا خساراتهم من زيادة الأسعار ثم مدوا أيديهم الى المواريث فإذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو لا وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه فى كل شهر ، ولا يعارض فيما يفعل من الجزيات ، وأما الكليات فيختص بها الأمير ، فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء الا من تداركه الله برحمته أو اختلس شيئاً من حقه فإن اشتهروا عليه عوقب على استخراجهم ، وفسدت النيات وتغيرت القلوب ونفرت الطبائع ، وكثر الحسد والحقد فى الناس بعضهم البعض ، فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدل به الى الظالم حتى ترب الاقليم وانقطعت الطرق وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ومنعت السبل إلا بالخفارة وركوب الغرر ، وجلت الفلاحون من بلادهم الى الشراق والظلم وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون مايتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره ، فلا يجد الزبال شيئاً يكسسه

من ذلك ، واشتد بهم الحال حتى أكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال ، فإذا خرج حمار ميت تراحمو عليه وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نيا من شدة الجوع ، ومات الكثير من الفقراء بالجوع ، هذا والغلاء مستمر والأسعار في الشدة وعز الدرهم والدينار من أيدي الناس وقل التعامل إلا فيما يؤكل ، وصار سمر الناس وحديثهم في المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن ونحو ذلك لاغير ، ولولا لطف الله تعالى ومجيء الغلال من نواحي الشام والروم هلكت أهل مصر من الجوع ، وبلغ الأردب من القمح ألفا وثلاثمائة نصف فضة والقول والشعير قريباً من ذلك ، وأما بقية الحبوب والأبزار فقل أن توجد واستمر. ساحل الغلة خالياً من الغلال بطول السنة والشون كذلك مقفولة ، وأرزاق الناس وعلائقهم مقطوعة ، وضاع الناس بين صلحهم وعتيم وخروج طائفة ورجوع الأخرى ، ومن خرج الى جهة قبض أموالها وغلالها ، وإذا سئل المستقر في شيء تعلل بما ذكر . ومحصل هذه الأفاعيل بحسب الظن الغالب أنها حيل على سلب الأموال والبلاد وفخاخ ينصبونها ليتصيدوا بها اسماعيل بك» (١٦) .

وبعد حوالى عشر سنوات من تلك المجاعة ، تحدث مجاعة أخرى سرعان ما يهجر الفلاحون بسببها قراهم :

« (وفيه) [المحرم ١٢٠٧] أيضاً هبط النيل قبل الصليب بعشرة أيام ، وكان ناقصاً عن ميعاد الري نحو ذراعين فارتفعت الأحوال ، وانقطعت الآمال وكان الناس ينتظرون الفرج بزيادة النيل ، فلما نقص انقطع أملهم واشتد كربهم وارتفعت الغلال في السواحل والعرضات ، وغلت أسعارها عما كانت وبلغ الأردب ثمانية عشر ريالاً ، وآل الأمر الى أن صار الناس يفتشون على الغلة فلا يجدونها ، ولم يبق للناس شغل ولا حكاية ولا سمر بالليل والنهار في

مجالس الأعيان وغيرهم الا مذاكرة القمح والفلول والأكل ونحو ذلك ، وشحت النفوس واحتجب المساتير ، وكثر الصياح والعويل ليلا ونهاراً ، فلا تكاد تقع الأرجل الا على خلائق مطروحين بالأزقة ، وإذا وقع حمار او فرس تزاحموا عليه وأكلوه نيحاً ولو منتناً ، حتى صاروا يأكلون الأطفال ، ولما انكشف الماء وزرع الناس البرسيم ونبت أكلته الدودة ، وكذلك الغلة فقلب أصحاب المقدرة الأرض وحرثوها وساقوها بالماء من السواقي والتطالات والشواذيف ، واشتروا لها التقاوى بأقصى القيم وزرعوها فأكله الدود أيضاً ، ولم ينزل من السماء قطرة ولا أندية ولاصقيع ، بل كان في أوائل كيهك شروذات وأهوية ارة ثقيلة ، ولم يبق بالأرياف إلا القليل من الفلاحين وعمهم الموت بالجلدة (١٧) .

وقد كثرت في الجبرقي الاشارات المماثلة الى تعرض البلاد في العقد الأخير من القرن الثامن عشر لهجرات جماعية ولجاعات تتلوها انتشار الأوبئة أو الطواعين (١٨) .

وبذلك ، دخلت الزراعة المصرية في حلقة مفرغة متجددة الدوران ، أقطابها المحركة الاهمال الجسيم لعناصر الانتاج والاستنزاف البالغ لها وكلاهما -أصل في علاقات الانتاج وممارسات البيروقراطية العسكرية الحاكمة ، بصلتها الكمية انكماش المحصول الزراعي بنسبة تساوى حاصل ضرب بدهور إنتاجية عنصرى الانتاج الرئيسيين (الأرض والفلاح) من ناحية وتناقص كمياتهما من ناحية أخرى . ونعيد التذكير هنا بما ذكرناه في الفصل الثانى من استخدام الجهاز الحاكم للتأيز في التسعير كأداة لاعادة توزيع الدخل ، إذ يصبح في مقدور الطبقة الحاكمة الاستفادة من انكماش المحصول الزراعى برفع أسعار البيع لتعيد توزيع الدخل لصالحها بفاعلية أكبر، مستخدمة هذه الأداة التى تزيد في نفس الوقت من معاناة الفلاحين مع أنهم الأكثر حاجة الى

رفع الأسعار عندما تندهور كميات المحصول .

ويبدو أن تندهور الفائض والثروة الزراعية في أواخر القرن الثامن عشر وانحدار الأحوال المعيشية للفلاحين وقتها الى درجة تقترب من الاستنزاف الكامل كانت بعض أسباب ما نلاحظه من ازدياد ذكر تعرض أهل المدن من التجار وغيرهم لحوادث الضرائب الجزافية والمصادرات في تلك الفترة .. وقد أدت تلك الممارسات الى انخفاض أكثر حدة في الأحوال المعيشية للشعب المصرى في مجموعه ، انعكست سياسياً في .ردود فعل أشتد في المراكز (وعلى الأخص في القاهرة) حيث كان السكان أفضل تنظيماً وحيث وجدت مراكز ثقل سياسى أقوى نفوذاً عما كان الوضع عليه في الريف^(١٩) .

أثرت سياسات الجهاز الحاكم على كفاءة القاعدة الانتاجية للبلاد ، إذن ، في أكثر من اتجاه واحد . فقد أسفر استمرار الحكومة في حرث الأموال من المصادر المختلفة للثروة مع عدم القيام بإنفاق استثمارى يعتد به عن تقلص مضطرد في القاعدة المادية لموارد انتاج البلاد ، وضاعف من سوء الافاق الاقتصادية تعرض القوى العاملة للضرائب الضمنية على رأس المال البشرى والمثلة في سلب المزيد من العوائد المستحقة لها مما ترتب عليه مزيد من التدهور في مستويات المعيشة وبالتالى في كفاءة القوى البشرية وتدريبها . وكانت نتيجة تقلص القاعدة الانتاجية للبلاد من جراء تلك السياسات أن فرص العمل والكسب المشروع من خلال الزراعة والتجارة والملاحة كلها تقلصت وضاعت سبل الرزق فضلاً عما لحق بثروة البلاد من اضرار ذات تأثير حال ممتد وتأثير زمنى مضطرد .

ثانيا : الانعكاسات الطبقة

١ — تبعية الطبقة المتوسطة للطبقة الحاكمة :

رأينا من قبل كيف تركزت السيطرة الفعلية على أدوات الانتاج في يد الطبقة الحاكمة من خلال الأداة الإدارية المركزية (البيروقراطية) ووسائل القهر والقمع (القوات العسكرية) ، وكيف تم توظيف هاتين الأداتين للسيطرة على أرض وعلى الهياكل التقليدية للطوائف والأنشطة الحضرية .

وبينا لم نزل المجتمع من مجموعات من الأثرياء الذين كونوا في مجموعهم طبقة وسطى مميزة عن الطبقة الحاكمة من ناحية والفقراء من الأهالي وعموم الشعب من ناحية أخرى ، فإن تركيب تلك الطبقة افتقر الى وجود أساس مادي مستقل لها يستنض فيها إقدام البورجوازية الفتية وأخذها بأسباب المبادرة ، إذ افتقدت أى سيطرة على ملكية وسائل الانتاج فأصبح السبيل الوحيد لها للاحتفاظ بتميزها النسبي هو ربط نفسها بعجلة الطبقة الحاكمة المسيطرة وتحقيق مصالحها من خلالها ، وصار عليها بدلا من تكوين وترسيخ وورها الطبقي من خلال أداء دوز انتاجي متميز أن تكرر نفسها من خلال داء أدوار مختلفة مرتبطة بالنظام القائم وملبية له . لقد قام هيكل الطبقة المتوسطة المصرية وقتها دون أن يحمل في طياته امكانية افراز طبقة من الخلائق من أصحاب المبادرة (Entrepreneurs) الذين تتوفر لديهم الأسس المادية والاستعداد الشخصي لاقامة كيانات تتطور الى مؤسسات ذات استقلالية وتحرك جدلية التطور نحو إفراز نظام اجتماعي بديل أكثر تقدماً ، فنشأت تلك الطبقة في أحضان وجيب الطبقة الحاكمة ، واصطبغت بالعقم والتبعية والحفاظة ، وتمخضت فيما بعد عن إخفاق وطني عظيم .

فكبار التجار^(٢٠) ذوى النفوذ الواسع كونوا ثرواتهم من قيامهم بتوريد السلع للأمرء والحكام وبأعمال الشحن من القاهرة وإليها . وكان لابد من الاحتفاظ بعلاقات طيبة بالطبقة الحاكمة تعظيماً لحجم أعمالهم ، حفاظاً على مصالحهم . وبالإضافة الى المصالح المرتبطة مباشرة بفرص التجارة والكسب ، فقد تدعت مصالح كبار التجار مع الطبقة الحاكمة من ناحيتين أخريين ، الأولى مهما نيلهم التزامات مقاطعات عديدة وما جره عليهم ذلك من منافع تعدى نطاق تجارتهم ، وثانيهما (وربما الأهم) تدعيمهم لموقفهم التنافسي - أو بالأحرى الاحتكاري - من خلال قيامهم بدور جامعي الضرائب من طوائفهم المختلفة . وقد أشرنا من قبل الى استغلال كبار التجار لهذا الدور في زحزحة العبء الضريبي من على كاهلهم والقائه على الشرائع الأصغر فيهم مما أتاح لهم ظروفاً مواتية لتصفية المشروعات الناشئة ذات فرص التوسع والانفراد وحدهم باحتكارات كبيرة .

وهكذا ، لم تتوفر في ظل المناخ السياسي القائم الامكانية الكافية للمشروعات صغيرة الحجم بعيدة الصلة عن الطبقة الحاكمة للبحث عن سبل مغرية أو مواتية للربح ، إذ تضافرت العوامل المتأصلة في النظام القائم فصفت فرص وحوافز التراكم لدى تلك الشرائع أولاً بأول ، وذلك من خلال المصادرات المستمرة التي نشأت من الاضطراب والصراع السياسي وكذلك بسبب ثقل الضريبة الواقعة على تلك الشريحة بالتحديد وما ترتب على ذلك من تكريس احتكارات تابعة محدودة في ظل اختفاء المنافسة الحرة المتجددة .

ولقد زاد من صعوبة بروز برجوازية فتيية جديدة انعزال مصر عن العالم الخارجي وبالتالي انقطاع المدد الخارجي من التجديد في النوعيات والوسائل الانتاجية (السلع والتكنيك)^(٢١) ، مما سد السبيل أمام المخاطرة التي تستثمر

ما فتحته منجزات الابداع الفنى والنظرى من آفاق إنتاجية رحبة جديدة . غير أن ذلك كان - فيما يبدو - عاملاً مساعداً فحسب ، فقد ظل القيد الأساسى على الاستثمار بهدف التراكم نابعاً من كون الثروة المتراكمة تتعرض دائماً للاغتصاب من قبل الحكومة اذا ما أفصح عنها :

« لم يجرؤ الأفراد ممن كونوا الثروات على استخدام ثرواتهم الا بصورة سرية ، حتى لا يثيروا الشهوة الجامحة [للمسيطرين على] القوة ، ويعرضوا أنفسهم للاغتصابات التى تقرها الحكومة البربرية تحت اسم « مقدمات » (Avanias) ، والتى لا يملك [هؤلاء] حيلة للفكاك منها برغم كل حذرهم وحرصهم على السرية » (٢٢) .

كذلك عجز علماء الدين^(٢٣) الذين شكلوا واحدة من الشرائح العريضة فى الطبقة المتوسطة عن البروز كقيادة فكرية مستقلة - بل ، كانوا ركناً من أركان النظام القائم وأدوا دوراً هاماً فى استمراره ، وذلك بسبب الأساس الدينى الذى استمدت منه الدولة العثمانية (ومن ثم أداة الحكم الفعلية فى مصر) شرعيتها . ويبدو أن أمراء الممالك تنافسوا على كسب القبول لدى رجال الدين فأتاحوا لهم أموالاً طيبة من الهبات النقدية والمؤن العينية وأوقفوا عليهم بعض إيرادات الخزانة العامة ومنحواهم نظارات الأوقاف وإداراتها وتحالف بعضهم مع بعض العلماء وصرف لهم رواتب ثابتة . وتحققت بذلك المصلحة لرجال الدين فى النظام القائم ، فقاموا بالوساطة بين الحكام والأهالى مستفيدين من مكانتهم لدى الطرفين ، موفرين للنظام القائم شرعية الاستمرار ، ومقدمين للأهالى مبررات لقبوله . وبالرغم من نجاح العلماء أحياناً فى توظيف ذلك الدور لصالح

الأهالى بالتخفيف عن غلواء الحكام وتطرفهم ، ويرغم من أن بعض الحكام تعرض بالأيذاء لبعض رجال الدين حين بلغ هؤلاء حد المحاسبة والمساءلة ، فقد ظل العلماء فى مجموعهم وبصورة عامة يؤدون دوراً توفيقياً محدداً . ويعلق ستانفورد شو على ذلك فى فقرة ترجمناها كما يلى :

« هكذا كان هناك مزيج من استخدام أمراء المماليك لقوة البطش ومن اعتماد العلماء على المماليك ، حال بين المشايخ ، بصفة عامة ، وبين قبولهم واغتنامهم فرصة تمثيل ومساعدة الأهالى قبل الحكام قبولاً واغتناماً تامين » (٢٤) .

كانت الطبقة المتوسطة المصرية ، إذن ، امتداداً للنظام القائم أو ملحقاً له ، لا تتميز بامتلاك أداة إنتاج مستقلة ، وتستنبط منه دورها وثرواتها وتحافظ من خلالها عليها . ويرى بعض الكتاب - عن حق - أن العوامل الرئيسية لركود المجتمع المصرى وقتها نجدها متأصلة فى تلك التركيبية الخاصة للطبقة المتوسطة المصرية وفى غياب أى تنظيمات للتجار والحرفيين توفر لها الاستقلالية الاقتصادية والفاعلية (٢٥) .

٢ - ميوع حركة التنظيمات الأهلية وردود فعلها بسبب قيامها على الاخاء الدينى دون تجانس طبقي :

تدل الشهادات المتوفرة على أن قيادة الحركات الجماهيرية جاءت غالباً من مشايخ الطرق الصوفية (٢٦) . إذ نجد فى عجائب الآثار ذكراً لحوادث متفرقة تؤكد إمكانية تحريك قطاعات كبيرة من أهالى البلاد ، وتركز خيوط تلك الامكانية فى يد عدد محدود ومعروف من المشايخ عبأوا الجماهير بفضل مكانتهم كزعماء للتجمعات الصوفية التى ارتبطت برباط الأخوة الدينية فسيطرت على

تجمعات حضرية كبيرة متنوعة الأصول والمصالح وضمت كذلك بعض الفلاحين . وقد تضمن تقرير أحمد باشا الجزائر الى الباب العالى تحليلاً لنفوذ من وصفهما بأبرز اثنين من مشايخ الطوائف الدينية (الطرق الصوفية) ، وهما الشيخان البكرى والسادات ، وأهمية استاتهما لقدرتهما على تحريك الجماهير والتحكم فيها ، وقد قدر الجزائر باشا قواهما فى فقرة اقتطفنا وترجمنا منها مايلى :

« سوف تكون جهودهما مفيدة ، لأن كل علماء الأزهر ، والأئمة ، الخطباء ، والحفظة ، وقراء المدينة ، [وحراس الحج] من أبناء أوروبا [من قمان والأناضول] ، والتجار المغاربة ، كلهم يتبعونهما ولا يناقضون أوامرهما دأ : إن ليهما المقدرة ، سوياً ، على تكوين كتبية عسكرية قوية فى يوم واحد مؤلف قوامها من سبعين الى ثمانين ألف رجل على الأقل ، يدينون بالولاء والطاعة لهما . ويمكنهما بهذه الوسيلة أن يساعدوا الوالى » (٢٧) .

ويقارن ستانفورد شو تأثير مشايخ الصوفية بتأثير غيرهم من رجال الدين فيقرر أن تحرر مشايخ الصوفية من الاعتماد على الأمراء فى المأكّل والدخل أو استعدادهم لتجاهل تلك التبعية إن وجدت ، إنما يرجع الى قوة أواصر الأخوة .نية التى تربط أبناء الطرق الصوفية ، والى السلطة الروحية المطلقة لزعماء بصوفية ، والى قوة ارتباط الطرق الصوفية بالطوائف الاقتصادية والاجتماعية فى المدينة فيما يوحى لنا بتداخل التنظيمات الصوفية والطوائف الحرفية . ونلاحظ أن تلك العوامل صهرت جسماً حضرياً طيعاً متآخياً ضخماً ، جمع شرائح عديدة من أهل المدن والريف وتوفرت لديه امكانية الحركة الجماعية المنتظمة من أجل هدف محدد .

وبالرغم من أن تلك التنظيمات قد وفرت أساساً عريضاً للتعبئة الجماهيرية ، فإن آليات الحركة وردود الفعل فيها لم تتأثر باعتبارات المصلحة

الاقتصادية ولكن بالمؤثرات المتعلقة بالاعتبارات الدينية وبالتقاليد المرعية .
وليس بالمستبعد أن تتصف « التقاليد » أحياناً بمرونة تكاد تسمح باستيعاب
أى سياسة قائمة وبالتعايش معها بالتدرج بغض النظر عن مضمونها الاقتصادى
أو الاجتماعى . (أنظر رأى ستانفورد شو وردنا عليه الموضحين فى الفقرة
المعنونة « الاستنزاف الطبقي : الاطار العام » فى الفصل الثانى) .

هكذا ، كانت التنظيمات الأهلية المؤثرة القائمة لاتمثل طبقة ذات مصالح
مادية متبلورة محددة ، فلم تخضع تحركاتها لأسباب أو قواعد ثابتة وماعت آليات
الحركة لديها اشتعالاً ومحموداً .

وهكذا ، كانت ردود فعل الأهالى ضد السياسات المختلفة تستوعب
وتؤجل مادام العلماء قادرين على القيام بالوساطة ، وحتى تصل الأمور الى
درجة تهدد حتى حد الكفاف أو الى صورة تتناقض تناقضاً صارخاً مع العرف
والتقاليد المرعية . ولعل فى رواية الجبرقى لحركة عام ١٢٠٩/١٧٩٥ ما يؤكد
حقائق ثلاثاً : اشتعال الحركة عندما صدم الناس بما اعتبروه أول الأمر لاقدره
لهم به ، ثم تطلعهم الى قيادة مستمدة من أحد زعماء الطرق الصوفية (الشيخ
السادات) ، ثم استيعابهم آخر الأمر مارفضوا فى أوله :

« (وفى شهر الحجة) وقع به من الحوادث أن الشيخ الشرقاوى له حصّة
فى قرية بشرقية بلبئس حضر اليه أهلها وشكوا من محمد بك الألفى ، وذكروا
أن اتباعه حضروا اليهم وظلموهم وطلبوا منهم ما لاقدره لهم عليه واستغاثوا
بالشيخ فاغتاظ وحضر الى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك
بعدهما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبديا شيئاً ، ففعل ذلك فى ثانى يوم
وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلاق الأسواق والخوانيت ، ثم ركبوا فى ثانى يوم
واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا الى بيت الشيخ السادات ،

وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم ابراهيم بك وقد بلغه اجتماعهم ، فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر اليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألمهم عن مرادهم فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور/ وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها ، فقال لا يمكن الاجابة الى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات ، فقليل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء الممالك ، والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ ، فقال حتى أبلغ وانصرف ، ولم يعد لهم بجواب ، وانفض المجلس وركب المشايخ الى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد ، وأرسل ابراهيم بك الى المشايخ يعضدهم ويقول لهم أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطري ومرادى ، وأرسل الى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك . فبعث مراد بك يقول أجيبكم الى جميع ماذكرتموه الا شيئين : ديوان بولاق وطلبكم المنكسر من الجامكية [رواتب رجال الدولة] ، ونبتل ماعدا ذلك من الحوادث والظلم ، وندفع لكم جامكية سنة تاريخه اثلاثا ، ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم فذهبوا اليه بالجيزة فلاطفهم واتمس منهم السعى في الصلح على ماذكر ، ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة ، وفي اليوم الثالث حضر الباشا الى منزل ابراهيم بك واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير ، وكان المرسل اليهم رضوان كتنخدا ابراهيم بك فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعى خلفهم ، ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة ، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ، ويطلبوا رفع المظالم المحدثه

والكشوفيات والتفاريذ والمكوس ماعدا ديوان بولاق وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد / المقررة من قديم الزمان ، ويسيروا في الناس سيرة حسنة ، وكان القاضي حاضراً بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفرمن عليها الباشا وختم ابراهيم بك وأرسلها الى مراد بك فختم عليها أيضاً ، وانجلت الفتنة ، ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة ، وهم ينادون حسب مارسهم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية ، وفرح الناس وظنوا صحته وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ، ثم عاد كل ماكان مما ذكر وزيادة ، ونزل عقيب ذلك مراد بك الى دمياط وضرب عليها الضرائب العظيمة وغير ذلك « (٢٨) » .

ثالثا : الخلاصة

كان للعلاقات الطبقيّة ولممارسات الحكم التي سادت المجتمع المصري في أواخر القرن الثامن عشر آثار بعيدة المدى ، امتدت الى أبعد من الواقع القائم وقتها لتتأثر من آفاق التطور المستقبلية .

فلقد ولدت تلك العلاقات والممارسات حلقة مفرغة أدت آلياتها المتواصلة الى استنزاف مصادر الثروة بالبلاد من عوامل مادية وقوى بشرية ، فتقلص الفائض المصري وانعدم التراكم أو كاد وانكمشت القاعدة الانتاجية للبلاد واجهدت قواها العاملة .

كما أدت أنماط السيطرة على أدوات الانتاج والسلوك الاقتصادي والاداري للطبقة الحاكمة الى تجرييد المجتمع المصري من القدرة على إفراز قوى انتاجية تناضل ضد النظام القائم لتغيير العلاقات الطبقيّة القائمة ، فلقد أدى وقوع

الشرائح الرئيسية في الطبقة المتوسطة المصرية في علاقة تبعية للطبقة الحاكمة أن أصبحت تلك الشرائح تتصف بالعجز والعقم والحفاظة ، كما أجهض قوى التقدم في مصر قيام التنظيمات الأهلية بها على أسس غير طبقية وبلوغ طبقاتها العاملة حالة من الفقر والاستنزاف في غياب قيادة منظمة ومحركة من الطبقة المتوسطة .

تلکم كانت - في رأينا - أخطر نتائج نظم الحكم والسيطرة على مصادر الثروة وعلى توزيعها ، وأبعد التداعيات أثراً للنظام الطبقي المتأصل في مصر قتها . ولعل في الأسطر التالية المقتطفة من مؤلف الأستاذ فوزى جرجس عن ينج مصر السياسى منذ العصر المملوكى تلخيصا بليغا لانعكاس تلك داعيات على التقدم التقنى والنضج الاجتماعى للمجتمع المصرى وقتها ، إذ أن في أحداث التاريخ أبلغ تلخيص لكل ما يعتمل بالمجتمعات البشرية المعاصرة لبعضها البعض من أمور تحدد الوضع النسبى لكل منها ومحصلة مراعاتها ومضائر كل منها عند المواجهة والاصطدام . تأمل في الأسطر التالية التى يرسم فيها فوزى جرجس مشهد المواجهة بين المماليك والفرنسيين :

« لم يكن هؤلاء المماليك ، بل ورؤساؤهم الكبار بأقل عزلة عن الشعب سه ، وليس أدل على هذا من أنه عندما حضر الأسطول البريطانى الى ميناء «سكندرية بجنأ عن الأسطول الفرنسى ، سافر حاكم المدينة على عجل الى القاهرة ، وأخبرا مراد بك بما دار بينه وبين الرسول البريطانى ، فنهز مراد بك وقال له دعمه ينزلون الى البر ، فسوف نفنهم تحت سنالك خيولنا . ثم أمره بالعودة فوراً . وسد بوغاز رشيد بسلسلة غليظة ، حتى لاتستطيع المراكب النصرانية اجتياز باب البوغاز . إن مراد بك لم يكن يدري أن هناك ثورة حدثت في فرنسا ، وأن هناك صناعة حديثة متطورة أنتجت آلات حرب حديثة ومتطورة ، وأن الجيش الفرنسى مشكل على أحدث الطرق العسكرية

ويقوده قائد فذ له انتصارات عسكرية مذهلة .. لم يكن مراد بك يدري شيئاً عن هذا ، فقد كان يظن أن المسألة لا تتعدى فرساناً يقاتلون فرساناً . ولما كان الممالك خير من ركب جواداً ولعب بسيف ، وتاريخهم عريق في مثل هذه الحروب .. أليسوا هم الذين أوقفوا الزحف التتري تحت قيادة الظاهر بيبرس البندقدارى .. لذلك فليس هنا شك أن هزيمة الفرنسيين لن تستغرق منهم وقتاً طويلاً أو مجهوداً عظيماً .. إن مراد بك لم يكن يدرك أن الاقطاع المتجمد يواجه الرأسمالية الصاعدة » (٢٩) .

هوامش الفصل الرابع

- ١ - Crouchley, 6-7.
- ٢ - لميطة ، ٤٥ - ٤٦
- Sonnini, I, 191-194, Huseyn Efendi, 49, 125-130, Crouchley, 32-36, Gibb, I, 304 .
- ٣ - Shaw: The Financial....., 225-238.
- ٤ - لميطة ، ٢٧ - ٢٨
- Huseyn Efendi, 50, Gibb, II, 39.
- ٥ - الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج٤ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .
- ٦ - الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج٧ ، ٥٩ .
- ٧ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج١ ، ٥٧٠ ، وج٢ ، ١٠٣ ، ١٣٤ و ١٣٦ و ١٤٣ و ١٥٩ .
- ٨ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج١ ، ٥٧٠ . وقد ذكر بعد عدة سنوات من هذه الحادثة أن سعر القمح كان ثمانية ريلات للأردب الواحد .
- ٨ - الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج٤ ، ١٩٩ .
- ١٠ - Sonnini, II, 215.
- ١١ - Sonnini, II, 190-192 and III, 40-47 & 267 .
- ١ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج١ ، ٣٩٦ .
- ١ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج١ ، ٥٠٨ و ٥٧٦ ، ٥٠ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٨ و ٧٠ .
- ١٤ - الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج٤ ، ٢٢١ .
- ١٥ - Sonnini, 222-223.
- ١٦ - الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج٣ ، ٢٧٩ - ٢٨١ .
- ١٧ - الجبرتي ، جوهر وآخرون ، ج٤ ، ٢٢٠ - ٢٢١ .
- ١٨ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج١ ، ٥٦٤ ، ٥٨٢ و ٦٠٨ و ٦٠٩ و ٦١١ و ٦١٣ و ٦١٤ ، ج٢ ، ٢٢ و ٢٧ و ٨١ و ٨٢ و ٩٤ و ١٤٥ و ١٦٠ .
- ١٩ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج١ ، ٤٩٧ و ٤٩٩ - ٥٠١ و ٥٩٤ و ٦٠٨ ، ج٢ ، ٩١ .
- ٢٠ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج٢ ، ١٣٥ ، ج٣ ، ٥١ .

لم نستدل على المرادف للفظ "Avanias" باللغة العربية أو على معناه بالإنجليزية وقد ورد ذلك اللفظ في الترجمة الإنجليزية للنص الفرنسي الأصلي ووضع بين علامتي استعارة (" ") بالشكل الموضح في الفقرة المقتطعة ، لكن البحث لم يدلنا على معنى لها بالإنجليزية أو بالفرنسية ، فرجحنا أن تكون مشتقة من لفظ "Avant" وترجمناها « مقدمات » قاصدين بها ما سبق ذكره في هذا الفصل من مطالبة الحكام للتجار بسداد الضرائب مقدماً على سبيل السلفيات النقدية .

٢٣ - الجبرتي ، دار الفارس ، ج ١ ، ٣٠٨ و ٣٣٤ و ٣٣٩ - ٣٤١ و ٣٥١ - ٥٤ .

Huseyn Efendi, 97-100, Affaf Lutf Al-Sayyid Marsot: The Political and Economic Functions of The Ulama in the Eighteenth Century", Journal of The Economic and Social History of the Orient, XVI, 19, 130-154, 135, 141-144, 146-151, 152, David Crecelius: "Non-Ideological Responses of the Egyptian Ulama to Modernization" in N.Keddie, ed., Scholars, Saints And Sufis (1972), 168-172, Affaf Lutfi Al-Sayyid Marsot, "The Role of the ulama in Egypt during the Early Nineteenth Century, in P.M. Holt , ed., Political and Social Change in Modern Egypt (1968), 264-280.

نبينا شو أن رجال الدين صنفوا في طيقتين : أعلى وأدنى . وقد انحصرت الأعلى على من جاء منهم من أصول عثمانية (« العثمانية ») وأعتبر هؤلاء منتبسون الى الطبقة الحاكمة لامتلاكهم إمتياز اللغة ومعرفتهم نظم السلوك والتصرف والاطمئنان الى ولائهم للسلطان ، فتمتعوا بنفوذ ضخم ، وجاء منهم معلمو الأمراء ، والقضاة الذين حكموا في مدى إتساق النظم الادارية والتشريعات المدنية مع الشريعة الاسلامية . ثم اتسعت مسئولياتهم مع تحلل أدوات الادارة العثمانية في القرن الثامن عشر فتولى قاضي المنطقة مهام الحكومة المحلية الى حد الاشراف على الزراعة وإدارة الضرائب .

وضمت الطبقة الأدنى من جاء من أصول غير عثمانية (« الرعية ») ، وجاء منها مشايخ الأزهر والمعلمون بالمساجد والمفتون ومن شائهم ، وحظى هؤلاء بحب الناس واحترامهم واقترابهم النسبي منهم ، فكان يؤمل أن تبرز بينهم بصورة طبيعية زعامات أهلية في وقت كانت الطبقة الحاكمة فيه كلها أجنبية ، ولكن حال دون قيامهم بالتمثيل الطبيعي للأهالي العوامل المذكورة في متن البحث .

وحدث في أعقاب حركة على بك الكبير أن بدأت أعداد متزايدة من العلماء المصريين تتولى مناصب القضاء . ولكن ، ومن جهة أخرى ، بدأ كثير من أفراد القوات العسكرية العاملة في التحايل من أجل تحويل الرواتب التي تصرفها لهم الخزانة الى « عادات » ، أى الى معاشات يتقاضونها بصفة دائمة دون تقديم أى خدمة مقابلها وذلك بدلا من أن تظل تلك الرواتب أجوراً يتقاضونها نظير خدمات ، فاختلفوا بذلك بصفوف العلماء الذين كانت تلك « العادات » جزءاً من إيراداتهم ، وترتب على ذلك أن حفلت صفوف العلماء بكثير من الأفراد الذين يجهلون قواعد الشريعة والذين تمكنوا مع ذلك من الاستيلاء على مناصب القضاء لبيعهم للأمرأ ، مما أدى الى تدهور أحوال العدالة والتعليم مع انتشار بيع المناصب القضائية الى أعلى المزايد واستخدام هؤلاء تلك المناصب لتحقيق منافع خاصة لهم .

Huseyn Efendi, 99.

- ٢٤

- ٢٥ - جرجس ، ١١ و ٣٥ .

Cezzar Pasha, 22-23, Huseyn Efendi, 100-105.

- ٢٦

، يذكر شو أن شعور الحكام بنفوذ الطوائف الصوفية وصل الى حد أنهم كانوا يترقبون وجود رموز تلك الطوائف ضمن وفود المستقبلين للوالى العثماني عند أول قسوم له الى القاهرة ويعتبرونه دلالة قبول لذلك الوالى . كذلك سعى الحكام الى توطين أعضاء تلك الطوائف بعيداً عن المراكز الحضرية ، إبعاداً لخطرهم ، وذلك عن طريق منحهم حق الاشراف على أراض زراعية تابعة للأوقاف ، ومن غير المعلوم عدد من استوعب في تلك الترتيبات .

Cezzar Pasha, 23.

- ٢٧

ورد في الترجمة الانجليزية لفظ **Rum Osagi** فترجمناه ها « أبناء أوروبا [من البلقان والأناضول] » ... « استناداً الى تعليق ستانفورد شو على هذا اللفظ في هامش ألحقه بتلك الفقرة وذكر أن اللفظ الأصل معناه "Children from Europe" ثم أوضح أنهم أبناء أوروبا القادمون من الأناضول والبلقان للدخول في جيش أمير الحج كوسيلة للحج الى الأراضي المقدسة .
أما لفظا « التجار المغاربة » فأصلهما في النص الانجليزي المترجم **North African Merchants** أى التجار من شمال افريقيا .

- ٢٨ - الجبرتي ، جوهر واخرون ، ج ٤ ، ٢٥٤ - ٢٥٧ . ورد شرح لفظ « الجامكية » في هامش للمحققين ، ج ص ٣١٧ من جزء سقط ذكره أثناء تدويننا المرجع .
٢٩ - جرجس ، ٢٤ . أنظر أيضاً نفس المرجع ، ٢٢ - ٢٤ .

الخاتمة

إجتهاد تاريخي لتفسير إخفاق الطبقة المتوسطة المصرية وظهور محمد على

خضع توزيع الثروة في مصر لعلاقة طبقية ميزت بوضوح بين الحكام والرعية ، فأعطت الحكام الحق في الحكم والانفاق كيفما يشاءون واعتبرت الرعية مسئولة عن مدهم بالموارد الضرورية لتمويل ذلك الانفاق . وقد أقيمت تلك العلاقة على تبرير مؤداه أن الحاكم المطلق (السلطان) هو المالك الأصلي للبلاد وماعليها ، وبالتالي فهو المستحق لكل ما ينشأ عن مصادر الثروة (أدوات الانتاج) بها من إيرادات . وأفضى ذلك التبرير الى تقسيم إدارى شديد المركزية لمصادر الثروة استخدمته الطبقة الحاكمة في مجموعها لتكريس سيطرتها على الادارة الفعلية لتوزيع الثروة فاستقطبت الجزء الأعظم من إيرادات البلاد ووجهته لصالحها الخاص ، مرتكزة على جهازى الادارة (البيروقراطية) والقهر (القوات العسكرية) .

وقد اتسم السلوك الاقتصادى للطبقة الحاكمة بأنماط أدت الى استنزاف الموارد المالية للبلاد ، وكان من غير المتوقع أن يبرز من بين صفوف تلك الطبقة - بخلفيتها وتركيبها الداخلى وبرغم اتصافها بالاستعداد لخوض المخاطرة - أفراداً

أو مجموعات رائدة يتمحور مشروعاتها السياسى حول بناء قاعدة صلبة لبلد قوى (أى التقدم عن طريق سيطرة حكومية مركزية) أو حول مشروعات استثمارية خاصة بها فى أنشطة اقتصادية مختلفة (أى التقدم عن طريق تدعيم المشروع الخاص) . بل ، فضلا عن ذلك ، فقد أدت سياسات الجهاز الحاكم الى تدهور متواصل فى القوى الانتاجية للبلاد ، بدءا بالموارد المادية ثم وصولا الى رأسمالها البشرى فى وقت لاحق . كذلك تفاعلت العوامل الأساسية فى النظام الطبقي الاجتماعى القائم لتجهض امكانية تكون وصعود طبقة متوسطة ذات مصالح مستقلة تحفزها على الصراع لاحداث تغيير أساسى ذى دلالة فى النظام السائد والعلاقات الطبقية المحتوية فيه . وغابت التنظيمات الأهلية القائمة على أساس من المصلحة الطبقية فقامت النشطة منها على أساس من رباط الأخوة الدينية وضمت شتاتاً من المتتمين لطبقات ذات مصالح متباينة فلم تعكس فى مجموعها مصلحة متجانسة مفهومة وانعدمت بالتالى أسباب التحرك الشعبى طويل الأمد لمحدد الهدف .

ذلك ما كانت الأحوال عليه فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر .

فلما جاءت الحملة الفرنسية وانهارت مع قدومها أداة الحكم ، وواجه الأهالى الغزاة الأجانب بصورة مباشرة فنازلوهم وتحلوا وجودهم ، ثم انسحبت الحملة بعد فترة وجيزة مخلفة وراءها فراغا سياسيا من ناحية وشعباً حركت المواجهة السياسية فيه عوامل التحدى والمواجهة الحضارية عوامل التساؤل من ناحية أخرى ، كان يمكن وقتها أن تغتنم قيادات مصرية الفرصة لتستولى على أداة الحكم اذا كانت فى الطبقة المتوسطة شرائح قادرة على رؤية أسس لمجتمع بديل عن ذلك الذى ساد قبل دخول الحملة مصر .

ولكن يبدو أن الرؤية والحافز انعدما ، واقتصرا على بعث النظام القديم الى

الوجود من جديد ، ذلك النظام الذى دارت فى فلكه الطبقة المتوسطة المصرية
أبداً ، فأرادت بعثه فى ظروف تبيح قدرأ أكبر من المشاركة فى الحكم والغنائم .

ويبدو لنا أن التغيير ذا الدلالة كان لابد أن يأتى من خلال حكومة مركزية
قوية تعمل على تجميع الموارد المنهكة للبلاد وتوجيهها فى إطار مشروع نهضة
محلية عامة ، مستوعبة قوى الانتاج فى أشكال أكثر حداثة وتعقيداً ، مؤدية
دوراً بديلاً عن طبقة رائدة على الأقل فى بداية تلك النهضة ، وبادئة علاقة جدلية
جديدة نحو إنضاج التركيب الطبقي والعلاقات الطبقية فى أشكال أكثر تقدماً
ورقياً ، ومحدثة تغييراً مادياً يستنهض فى الجماهير المصرية الحماسة والطموح .

تلك كانت ، فيما يبدو ، الضرورة التاريخية لدور محمد على .

ملحق

حركة التدفق المالى لايرادات الخزانة ومصروفاتها

احتجنا فى تحليلنا بيانات نستنبط منها الاتجاهات العامة للأنصبه النسبية لمصادر ايرادات الخزانة ولقنوات صرفها .

وقد افترقت المراجع الأولية المستخدمة هنا الى بيانات متكاملة عبر مدى زمنى معقول ، واقتصرت على تغطية بعض النواحي المرتبطة بالايرادات وكيفية توزيعها على نفقات مختلفة ، فقد اقتصر تقرير حسين أفندى الى استيف على ذكر اجمالى ايرادات ومصروفات سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م ، واقتصر تقرير أحمد باشا الجزار الى الباب العالى على تقديره لحجم ايرادات أمراء الممالك والطبقة الحاكمة ، بينما ذكر الجبرى فى « عجائب الآثار » حجم الارسالية السنوية والمدفوعات الى الجنود والضرائب على الأراضى والتجار ولكن كمعلومات متناثرة فحسب تظهر فى بعض السنين ولايأتى ذكر لها فى البعض الآخر .

والمرجع الوحيد من بين المراجع المستخدمة هنا الذى توفرت فيه بيانات واسعة النطاق لمالية الخزانة . كان مؤلف ستانفورد شو عن التطور المالى والادارى لمصر العثمانية من ١٥١٧ الى ١٧٩٨ (أنظر قائمة المراجع) .

ويحتوى هذا المؤلف على بيانات وأرقام مأخوذة عن الأرشيفين المصرى والعثمانى ومن تقديرات علماء الحملة الفرنسية . وبالرغم من احتوائه كثيراً من البيانات والايضاحات ، الا أنه لا يحتوى ميزانيات كاملة الا لعدد محدود من السنوات ، ويقتصر تركيزه غالباً على تقديم تحليل للبنود الرئيسية المكونة للايرادات وللمصروفات فى عمومها وللعناصر الجزئية لتلك البنود ، مع إعطاء أمثلة محدودة مأخوذة من ميزانيات بعض السنين . ومع ذلك ، بقى من الممكن تكوين فكرة طيبة عن أنصبة البنود المكونة لايرادات الخزانة ومصروفاتها عن طريق استخدام البيانات المتوفرة فى هذا المرجع .

وكانت مصر فى ظل الحكم العثمانى قد تعرضت لعدد من الاصلاحات المالية الرئيسية التى استهدفت إعادة حجم الارسالية السنوية (الفائض من الايرادات عن المصروفات) الى مستوى أعلى مما كانت عليه قبل الاصلاحات مباشرة ، وذلك بواسطة زيادة الايرادات وضغط المصروفات عن المستويات السائدة فى السنوات التى سبقت تلك الاصلاحات . فإذا تتبعنا تطور الهيكل المالى المتمخض عن تلك الاصلاحات أمكننا - على الأرجح - استشفاف عناصر الميزانية المصرية فى عمومها خلال العصر العثمانى .

ولابد من تنويه هنا بشأن مانعرفه عن عدد هذه الاصلاحات ، إذ يضارب المعلومات المدونة لدينا فى هذا الشأن ، والتى جمعناها كلها من أعمال ستانفورد شو . فقد وجدنا فى بطاقات بحثنا الأصلى والتى ترجع الى عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ إشارة مأخوذة من مؤلف شو The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798 بأن عدد تلك الاصلاحات ثمانية أجريت فى أعوام ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٠ م و ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م و ١١٣٠ هـ / ١٧١٧ م و ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢ م و ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م و ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م و ١٢٠٠ هـ /

١٧٨٥ م و ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م . من ناحية أخرى ، فقد قرأنا في تعليق شو على تقرير حسين أفندى وأحمد باشا الجزائر عندما عدنا إليهما أخيراً مايفيد بأن عدد الاصلاحات المالية الرئيسية كان ستة فقط تمت في الأعوام المذكورة سلفاً باستثناء أعوام ١٧١٧ و ١٧٦٦ و ١٧٨٥ و ١٧٩٤ وبإضافة عامى ١٦٦٠ و ١٧٦٧ ، وأن ميزانية عام ١٧٩٥ هى آخر الميزانيات المصرية المكتملة المتاحة من العصر العثمانى دون ذكر أى ارتباط بينها وبين أى إصلاح مالى اجرى وقتها . ولم يظهر لنا ذلك التضارب فى البيانات التى جمعناها الا فى أواخر البحث الحالى وفى وقت كان من العسير فيه الرجوع الى المؤلف المذكور (The Financial.....) للتيقن من دقة المنقول عنه . ولسنا نستبعد أبداً أن يكون منشأ ذلك التضارب خطأ من جانبنا فى النقل أو الفهم والتفسير ، نظراً لما للأستاذ شو من باع غير منكور فى المجال الذى يكتب فيه ، خاصة وأنه يصعب أن يكون الاختلاف راجعاً الى وقوفه - وهو صاحب جهد علمى متصل - على حقائق مختلفة فى الفترة ما بين كتابته لمؤلفه وتعليقه على التقريرين المذكورين لقصر تلك الفترة الفاصلة بينهم والتى لم تتعد العامين . وعلى كل الأحوال فالبيانات بصورتها المتوفرة تتفق على وجود خمسة إصلاحات مالية رئيسية على الأقل ، تمت فى أعوام ١٦٧٠ و ١٦٩٥ و ١٧٤٢ و ١٧٦٠ و ١٧٦٦ أو ١٧٦٧ .

فإذا عدنا الى النظر فيما يتوفر لنا من ميزانيات مكتملة البيانات ، وجدناها أربع ميزانيات ، خاصة بأعوام ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٠ م و ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م و ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ و ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م ، وبذا تتوفر لدينا ميزانيتان اصلاحيتان على الأقل (١٦٧٠ و ١٧٦٦) وميزانيتان أخريان (١٧٨٥ و ١٧٩٥) يميزهما أنهما أكثر الميزانيات قرباً من الفترة موضع الدراسة ، وذلك إن لم تعكس أى منهما إصلاحاً مالياً آخر . (أنظر الهامش

رقم ٢ أدنى الجدول رقم ٣) .

ونقوم فى الجدولين الأولين مما يلى بتحليل عناصر الميزانيات الأربع مكتملة البيانات ، ثم تعرض فى الجداول الثلاثة التالية لها نموذجاً تقديرياً للإيرادات والمصروفات فى سنوات مختارة استنبطناه من تتبع حركة التدفق المالى (مصادر الإيرادات وتوزيعها على النفقات المختلفة) فى السنين التى تلى سنوات الإصلاح المالى مباشرة . والهدف من ذلك النموذج التقديرى التعرف على المبادئ التى تم على أساسها تنظيم مالية الخزنة . ولا بد من التأكيد على أن هدفنا كان التوصل الى انعكاس عام لتلك المبادئ ، وليس التوصل الى تقدير المبالغ المحددة التى تم تحصيلها أو التصرف فيها ، ومن هنا كان من المقبول وجود درجة عالية نسبياً من التقريب طالما لم يخل ذلك بالغرض العام المقصود ، أى طالما اطمأنا الى أن نتائجه العامة غير مضللة . وتذيل كلا من الجداول الخمسة التالية هوامش توضيحية تتناول خلفيات بعض البنود وبها إشارة الى المصادر المستقاه منها بياناتنا والى الأسلوب الذى اتبعناه فى بناء النموذج التقديرى للتدفق المالى .

الجدول رقم (١)
الميزانيات المصرية مكتملة البيانات
في القرنين السابع عشر والثامن عشر
(المبالغ بالآلاف البارات)

مصرية/ميلادية	١٠٨٢ هـ/١٦٧١ م	١١٨٠ هـ/١٧٦٩ م	
مصادر الأموال :	المبلغ %	المبلغ %	
١ - المقاطعات الزراعية ^(٢)	٦٣,٦١١	٦٦,٤	غير
٢ - المقاطعات البحرية	١٠,١٥٧	١٠,٦	
٣ - المقاطعات الحضرية والأخرى	٣,٢٠٢	٣,٣	معرفة
إجمالي إيرادات المقاطعات (دمال) ^(٣)	٧٦,٩٧٠	٨٠,٣	٨١,٣١٠,٧١٢
الخراج ^(٤)	-	-	١٢,١ ١٤,٩٤٩
٤ - الكثيرة الكمية ^(٥)	-	-	١,٧ ٢,١١٣
٥ - الطرزان ^(٥)	-	-	

١٣,٨ ١٧,٠٦٢ ١,٦ ٢,٠٠٣ ٣,٤ ٤,٢٠٥	- ١,٣ ١,٢٠٠ ١٨,٤ ١٧,٦٣٥	إجمالي مدفوعات الطبقة الحاكمة ^(٦) ٦ - مال الجوالي ^(٧) ٧ - إيرادات متنوعة ^(٨)
١٠٠,٠ ١٢٣,٩٨٢	١٠٠,٠ ٩٥,٨٠٥	إجمالي الإيرادات
٥٢,٠ ٦٤,٤٨٥ ٢١,٧ ٢٦,٩٦٩ ٤,٠ ٤,٩١٦ ٢,١ ٢,٥٤٤	٥٨,٩ ٥٦,٤٣٨ ١٠,٠ ٩,٥٥٨ ٦,٩ ٦,٦٤٤ ٢,٩ ٢,٨٠٢	استخدام الأموال : ٧ - الأجور والرواتب ^(٩) والمعاملات ٨ - نفقات البيع والأراضي المقدسة ^(١٠) ٩ - نفقات على أغراض في مصر ^(١١) ١٠ - مصروفات الباب العالي ^(١٢)
٧٩,٨ ٩٨,٩١٤	٧٨,٧ ٧٥,٤٤٢	إجمالي المصروفات

مصريه/إيجلاديه	١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م البيع %	١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م البيع %
١١ - فاقض الإيرادات عن المصروفات (الرسالية السنوية) (١٣)	٢٠,٣٦٣ ٢١,٣	٢٥,٠٦٨ ٢٠,٢
١٢ - إجمال الاستخلاصات	٩٥,٨٠٥ ١٠٠,٠	١٢٣,٩٨٢ ١٠٠,٠

تابع الجدول رقم (١)

الوسط لبيانات القرن ١٨	الوسط العام	١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م		١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م		هجرية / ميلادية
		%	المبلغ	%	المبلغ	
٦٤,٧	٦٥,٢	٦٥,٨	٧٨,٩٤١	٦٣,٦	٨٢,٧١٠	مصادر الأموال : ١ - المقاطعات الزراعية ^(٢) ٢ - المقاطعات البحرية ٣ - المقاطعات الحضرية والأخرى
١٧,٢	١٦,١	١٢,٧	١٥,١٧٦	١٩,٩	٢٥,٨٧٤	
		١,٨	٢,٢١٥			
٨١,٩	٨١,٣	٨٠,٣	٩٦,٣٣٢	٨٣,٥	١٠٨,٥٨٤	إجمالي إيرادات المقاطعات (٣) (مال الخراج) ٤ - الكسوفية الكبيرة ^(٤) ٥ - الحلوان ^(٥)
١٢,٠	٨,٩	١٢,٣	١٤,٧٥٠	١١,٥	١٤,٩٧٨	
١,٦	١,٣	١,٨	٢,١١٣	١,٦	٢,١١٣	

الفترة للتقارير التي ١٨	الفترة التي العام	١٢٠٩ / ١٧٩٥ م		١٢٠٠ / ١٧٨٥ م		معمارية / ميلادية
		%	المبلغ	%	المبلغ	
١٣,٦	١٠,٢	١٤,١	١٦,٨٦٣	١٣,١	١٧,٠٩١	إجمالي مدفوعات الطبقة المعتمدة ^(٧) ٦ - مال الجوالي ^(٧) ٧ - إيرادات متوقعة ^(٨)
١,٦	١,٦	١,٧	٢,٠٥٩	١,٦	٢,٠١٩	
٣,٠	٦,٩	٣,٩	٤,٦٤٥	١,٨	٢,٤٠٤	
١٠٠,١	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١١٩,٨٩٩	١٠٠,٠	١٣٠,٠٩٨	إجمالي الإيرادات
إستخدام الأموال :						
٤٧,٠	٥٠,٠	٤٤,٣	٥٣,١١١	٤٤,٧	٥٨,١٣٧	٧ - الأيجور والتربيات والماشيات ^(٩)
٢٣,١	١٩,٨	٢٥,٠	٢٩,٩٥٦	٢٢,٦	٢٩,٣٧٨	تفقات المصح والأراضي المقدسة ^(١٠)

الوسط لإزائات القرن ١٨	الوسط العام	١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م		١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م		هجريه / ميلاديه
		%	%	%	%	
٤,٤	٥,٠	٤,٣	٥,١٢٢	٤,٩	٦,٤١٧	٩ - نقات على أغراض في (١١) مصر
١,٢	١,٧	٠,٨	٩٧٥	٠,٨	٩٩٠	١٠ - مصروفات البلب العالي (١٢)
٧٥,٧	٧٦,٥	٧٤,٤	٨٩,١٦٤	٧٣,٠	٩٤,٩٢٢	إجمالي المصروفات ١١ - فاقض الأبرادات عن المصروفات (الارساليه السويه) (١٣)
٢٤,٣	٢٣,٥	٢٥,٦	٣٠,٧٣٥	٢٧,٠	٣٥,١٧٦	
١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١١٩,٨٩٩	١٠٠,٠	١٣٠,٠٩٨	١٢ - إجمالي الاستخدمات

هوامش الجدول رقم (١)

١ - أخذنا بيانات هذا الجدول من المرجعين التاليين ، وهما نفس المرجعين اللذين استخدمتهما في تأسيس التقديرات المبدئية في الجدول رقم (٣) وكل ما يلي من حواش على الجداول أرقام من ١ الى ٥ مسند الى الصفحات الموضحة أدناه من هذين المرجعين الا في الحالات التي نذكر فيها غير ذلك :

Shaw: The Financial....., 183, 282, 299, 303, 399-400,
Huseyn Efendi, 150-152, 166-167

والميزانيات المفصلة هنا هي كل ما وجدناه من ميزانيات مكتملة البيانات في هذين المرجعين ، واللذين ضمّا أيضاً بيانات المالية متفرقة عن بعض البنود المتعلقة بسنوات أخرى . ونلاحظ أن ميزانية عام ١٢٠٩/٦ - ١٧٩٥ آخر ما وصلنا من ميزانيات كاملة قبل الغزو الفرنسي طبقاً لما ذكره ستانفورد شو في ملحوظاته على تقرير حسين أفندي .

٢ - القيمة المالية لاجمال ما آل الى الخزانة من ضرائب على الأرض الزراعية ، وسواء منها ما تم تحصيله بصورة نقدية أو بصورة عينية .

٣ - عرفت الإيرادات التي وردھا متعھلو المقاطعات للخزانة العامة ، سواء منهم الملتزمون أو الأمناء ، باسم مال الخراج أو الخراج . وكان هذا التعبير مستخدماً في الأصل بمعنى ضريبة الرؤوس ، ولكن يبدو - طبقاً لستانفورد شو - أنه لم يستخدم بهذا المعنى مطلقاً في مصر في العصر العثماني . كما عرفت الإيرادات التي حصلھا هؤلاء المستوردون واحتفظوا بها لأنفسهم كربح خاص بلفظ الفاظ.

(Huseyn Efendi, 108)

٤ - « الكشوفية الكبيرة » ضرائب سنوية فرضت على متقلدى المناصب الكبيرة ، وقد عرفوا « بأرباب المناصب » ، وعلى الأخص على هؤلاء الذين احتفظوا بإيرادات شخصية ضخمة بعد توريد الخراج الى الخزانة العامة ، وقد عرفت تلك الضريبة أيضاً بمال الكشوفية . ومن المهم هنا التمييز بين الضرائب التي سددها أفراد تلك الفئة الى الخزانة (الكشوفية الكبيرة) وتلك التي سددها الى الولى على مصر (الكشوفية الصغيرة) . كذلك من المهم التمييز بين تلك الضريبة وبين ما عرف بضريبة « الكشوفية » فحسب (دون إضافة لفظ مال الى هذا اللفظ ، أو دون إلحاق صفة الكبيرة أو الصغيرة به) . والضريبة الأخيرة كانت تحصل من الفلاحين

لمصلحة الكشاف (حكام الأقاليم) ولم يؤل أى منها الى الخزنة قط . وقد ظلت الكشوفية تدفع الى الوالى العثمانى كجزء من ايراداته الخاصة حتى عام ١٦٨٢ حين قسمت تلك الضريبة الى جزئين الأكبر منهما يدفع الى الخزنة (الكشوفية الكبيرة) والأصغر الى الوالى (الكشوفية الصغيرة) (Huseyn Efendi, 108-109) .

٥ - « الحلوان » أشبه برسوم أيلولة تلقتها الخزنة العامة من المتعهدين الجدد للمقاطعات مرة واحدة عن انتقال أى مقاطعة من متعهد الى آخر ، وسواء تم ذلك الانتقال نتيجة وفاة المتعهد الأسبق أو نتيجة نزع حقوق المتعهد فى حالة تمرد على السلطات أو عجزه عن توريد أو سداد الأموال المستحقة للخزنة . وفى أول الأمر ، منح حق تحصيل تلك الرسوم والاحتفاظ بها فى الحالة الأولى فقط (وفاة المتعهد) الى الوالى العثمانى كجزء من ايراداته الخاصة ، ثم استردت الخزنة ذلك الحق وعهدت به الى فرقة الشاويشية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتلقت الخزنة نظير ذلك ضريبة سنوية من تلك الفرقة ، فكأنما عومل ذلك الجزء من تلك الرسوم كمقاطعة فى حد ذاتها . ومن ناحية أخرى ، استمر الولاة العثمانيون يحصلون « الحلوان » بصورة مباشرة فى حالة نزع حقوق المتعهد ولكن دون أن يكون لهم حق الاحتفاظ بتلك الرسوم والتي كان من المفروض أن تورد موزعة بين الخزنة العامة فى مصر ونظيرتها فى استانبول .

٦ - أدبنا فى بند واحد المدفوعات من أفراد الطبقة الحاكمة ومعاونيها ، وقد ظهرت منفصلة الى تصنيفاتها الأصلية فى المرجعين المستخدمين هنا .

٧ - استخدم تعبير « مال الجوالى » أو الجزية للإشارة الى ضريبة الرؤوس على غير المسلمين من أهل مصر . ومن غير الواضح لنا ما اذا كان ذلك يشمل كل قاطنى مصر من غير المسلمين أم أنه اقتصر على المصريين منهم فحسب . (Huseyn Efendi, 109) ويقول ستانفورد شو أن تحصيل الجزية تم أيضاً من خلال مقاطعات (مقاطعة) عهد بها الى ملتزمين (ملتزم) ، وأن الأموال الميينة فى الميزانية والمسماة بمال الجوالى تمثل ماتم توريده الى الخزنة العامة من تلك الأموال لاجممع التحصيلات الفعلية من غير المسلمين .

٨ - ضمت الايرادات المتنوعة لإيرادات محصلة من بيع الخزنة لأملاك وحقوق وخدمات مختلفة ، وكذلك حصيلة ضرائب فرضت على مدن الدلتا الواقعة على البحر المتوسط وخصصت لتمويل نفقات مد الأسطول ببلياه عند رسو قطعه فى الاسكندرية أو رشيد .

دفعت الخزانة « الأجور » بصفة شهرية أو كل ثلاثة أشهر الى أفراد الفرق العسكرية السبع والى أفراد الفرق و الطوائف المتخصصة العاملة لديها من الكتبة والموسيقين وغيرهم . وقد أصطلح على تسمية الأجر الذى تلقاه الفرد من أفراد الفرق العسكرية عند التحاقه بفرقة « الابتداء » وبلغت قيمته ست بارات يومياً للمبتدئين ، وكان ذلك الأجر يزداد للأفراد الأكثر خبرة طبقاً للفرقة الملتحقين بها فتراوح حده الأقصى بين ثمانى عشرة بارة لأدنى الفرق أجراً (فرقة العزب) وست وثلاثين بارة لأعلاها أجراً (فرقة المتفرقة) وبالإضافة الى « الابتداء » ، حصل أفراد الفرق العسكرية على « ترقيات » عند القيام بأعمال ذات جدارة خاصة ارتبطت فى أغلب الأحيان بمهام دفاعية عند اصطحاب الشنحات السنوية الى السلطان أو عند الالتحاق بالأورطة المصرية من الجيش العثمانى . وفى الوقت الذى تحدد فيه حجم أفراد الفرق العسكرية ومن ثم اجمالى مايدفع لكل فرقة من مبالغ على سبيل « الابتداء » ، فقد كانت «الترقيات» تمنح بصفة شخصية لمن يظفر بها عند البلاء الحسن وتظل حقاً له طيلة بقائه على قيد الحياة ، حتى عند اعتزاله الخدمة أو انتقاله من فرقة .

وفى أواخر القرن الثامن عشر فسدت أسس ذلك النظام ، ودرج أفراد الفرق العسكرية على رفض القيام بالخدمات التى تلقوا المرتبات نظيرها ، كما صارت القسام التى تلقوا بموجبها مرتباتهم من الخزانة تعامل معاملة الأوراق المالية فتباع وتشتري وتورث ، وصاروا يحولون مرتباتهم الى أوقاف مالية عرفت باسم « العادات » - كى تدر دخلاً ثابتاً للفرد ولورثته بصفة دائمة . وقد عجزت الخزانة عن ابطال تلك التصرفات الفاسدة مما أدى الى ذهاب نسبة كبيرة من الأجور المدفوعة على ذمة القوات العسكرية الى نساء وأطفال وعجزة كونوا فيما بينهم القسم الأكبر من حاملى القسام وورثتها والمستفيدين من الأوقاف المالية ، مما أجبر الخزانة على تدبير أموال إضافية لمواجهة نفقات تأجير جند مدرين عند ظهور احتياج حقيقى الى خدماتهم (Huseyn Efendi, 176-178) .

أما « المرتبات » ، فكانت تمثل المدفوعات النقدية من الخزانة الى الأمراء والبيكات من أعضاء الديوان ، وقد تغيرت قيمتها وجمالها عبر القرون ، فتراوحت فى البداية بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف بارة فى العام لأعلى الأمراء رتبة (حمل كل منهم لقب أمير الطبلخانة) وبين مائتين ومخمسين ألفاً وثلاثمائة ألف لأدناهم رتبة (حمل كل منهم لقب « الكاشف ») ، وبلغ اجمالها وقتها سبعة ملايين بارة سنوياً

وذلك أواخر القرن السادس عشر . وعندما تمكن الأمراء في الأوقات اللاحقة من السيطرة على مصادر أخرى لايرادات ضخمة قامت الخزانة بتخفيض تلك المبالغ حتى وصلت في أواخر القرن الثامن عشر إلى أربعين ألف بارة سنوياً للأمراء الأعلى رتبة وعشرين ألف بارة سنوياً للأمراء الأدنى رتبة . وبحلول ذلك الوقت ، كانت تلك المرتبات تصرف في الواقع لوكلاء المنتفع الأصلي من أتباعه وخدمه بموجب مستند حمله كل منهم وعرف باسم « الحوالة » ، وبمقتضى ذلك أصبحت المرتبات في حقيقتها اعتماداً مالياً تصرفه الخزانة بأمر المنتفع الأصلي لمنتفعين فعليين يسميهم بنفسه فكانت الخزانة بذلك (كما لاحظ ستانفورد شو) أشبه بماسك أرضة جارية لصالح الأمراء المعينين وكانت الحوالات أشبه بالشيكات المسحوبة على تلك الأرضة (Huseyn Efendi, 176) .

ويلاحظ ستانفورد شو أن كل متلق لأجر أو مرتب نقدي من الخزانة كان له الحق أيضاً في صرف مؤونة يومية من اللحم والأرز والمواد الأخرى من مخازن الغلال الإمبراطورية . وكانت المؤن المحددة للأمراء الأعلى رتبة وللوالى العثماني من الفخامة بحيث غطت احتياجاتهم واحتياجات أتباعهم الاستهلاكية ، فكان الأخيرون يسحبون باسم سيدهم وبأذنه مؤناً من الاعتماد المفتوح لصالحه ، وكانت تلك الممارسة أشبه بما لاحظته شو من قبل بشأن صرف المرتبات النقدية لأتباع الأمراء وخدمهم (Huseyn Efendi, 79) .

وأخيراً كانت المبالغ المدفوعة على سبيل « المعاشات » تغطي المدفوعات الدورية للوافدين من الأفراد والذين انتظموا في فرقة عرفت بذلك الاسم ، كما كانت هناك أعداد من النساء والأطفال واليتامى ورجال الدين تتلقى معاشات دورية من الخزانة . ١٠ - شملت « نفقات الحج والأراضي المقدسة » مدفوعات تلقاها أمير الحج لتمويل نفقات قافلة الحج ولشراء المؤن والمهمات اللازمة لها ولإسناد أموال لقبائل البدو المنتشرة على الطريق للحيلولة دون اعتنائهم على القافلة ، وشملت تلك النفقات كذلك هبات سنوية نقدية وعينية لأهل مكة والمدينة ، بالإضافة إلى كسوة الكعبة ، وقد اصطلاح على تسمية الهبة النقدية باسم « الصرة » . ويلاحظ ستانفورد شو أن الأموال التي تلقاها أمير الحج من هذا الاعتماد بلغت ١٠,٩٤٢,٩٢٠ بارة في أواخر القرن الثامن عشر ، وذلك بالإضافة إلى عشرة ملايين بارة أخرى من الأموال المتضمنة في مبلغ الفائض السنوى (الارشالية السنوية) . والتبرير المعلن لتلك الأموال معاونة أمير

الحج في النهوض بأعباء مسئولياته في تنظيم قافلة الحج وقيادتها وشراء مهماتها وتوفير الحماية لها وحمل الصرة والكسوة الى الأراضي المقدسة وتوصيلها بسلام.
(Huseyn Efendi, 174-175)

١١ - أدمجت في هذا البند مجموعة متنوعة من النفقات ، القليل منها موجه لأغراض الصيانة والاستثمار والخدمات العامة مثل مد الموانئ بالمياه العذبة وصيانة السواقي وصيانة القنوات والخلاجان ، وأكثرها كان في حوهره إما مدفوعات خاصة لأفراد مختلفين من الطبقة الحاكمة ومعاونيها تحت مسميات أخرى غير مسميات الأجور والمرتبات والمعاشات وإما مدفوعات متصلة بأغراض سيادية لاعلاقة لها بدعم الأساس المادي لانتاج البلاد أو أمنها أو رفاهيتها مثل الأوسمة وقلادات الشرف وغيرها .
وقد صنفت تلك المدفوعات الى ثلاثة أصناف رئيسية طبقاً لمصادر تمويلها ، فمنها « التسليمات » وهي مادفعتها الخزنة خصصاً على الأراضي الزراعية رأساً ودفع الى المستفيدين أو القائمين بعمل محدد الغرض ، ومنها « العادات » وهي في الأصل مرتبات ومعاشات حولها أصحابها الى أوقاف مالية فأصبحت التزاماً دائماً على الخزنة لصالح المستفيدين من تلك الأوقاف (أنظر الهامش رقم ٩ أعلاه) .

وسوف نتعرض في الجلول رقم (٤) أدناه لعناصر ذلك البند بمزيد من التفصيل ، مبينين النصيب الموجه منه لأغراض تتصل بالأساس المادي لموارد البلاد (الأغراض الانتاجية) ومقارنين إياها بما وجه منه لأغراض أخرى .

(Huseyn Efendi, 95, 176-178, Shaw: The Financial ..., 224,237)

١٢ - شملت مصروفات الباب العالي شراء سلع استهلاكية ومهمات متنوعة لحساب الباب العالي وشحنها اليه في الآستانة ، وقد تضمنت تلك السلع السكر والأرز والعدس والبارود وسلعاً أخرى . ويلاحظ ستانفورد شو أن أمراء الممالك كانوا يستولون على تلك السلع في الأزمان المتأخرة (أواخر القرن الثامن عشر) وترتب على ذلك استقطاع مبالغ من الارسالية السنوية واستخلامها في شرائها وشحنها للباب العالي

١٣ - تذبذب حجم الأموال التي أريد تجميعها كفائض يرسل سنوياً للباب العالي . فيعد أن زاد الفائض المخطط من ستة عشر مليون بارة في القرن السادس عشر الى أربعة وعشرين مليون بارة في أول القرن السابع عشر تعرض للتذبذب بين الزيادة والنقصان ، فصار يتراوح بين عشرين مليون بارة وثلاثين مليون بارة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ويلاحظ ستانفورد شو أن الفائض الفعلي كان دائماً يقل

عن الفائض المخطط نظراً لانخفاض الإيرادات وارتفاع النفقات عن المبالغ المتوقعة أو المخططة أصلاً .

وقد جرت عدة محاولات للإصلاح المالي في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت جميعها تهدف إلى الارتقاء بالفائض الفعلي إلى المستويات المخططة ، وكانت تلك المحاولات تنجح في تحقيق غرضها أول الأمر ثم ماتلبث أن تعود الفجوة مرة أخرى بين الفائض المخطط والفعلي .

وقد تحولت معاملة أموال الرسائل السنوية بالتلويج إلى ما يشبه الاعتماد المفتوح لصالح الباب العالي في مصر ، واستخدمت في أغراض شملت شراء سلع متنوعة لحسابه وشحنها إلى الأستانة ، وتموين وحدات الأسطول العثماني أو القوات العثمانية المارة بالأراضي المصرية ، ومد أمير الحج بأموال إضافية لانفاقها على قافلة الحج وعلى الأغراض المتصلة بالأراضي المقدسة ، كما استخدمت تلك الأموال في حالات الضرورة والطوارئ عند تعرض البلاد لموجات من الجفاف أو الفيضان أو خلاف ذلك .

ويلاحظ ستانفورد شو أن الفائض المرسل بالفعل إلى الأستانة قلما تعدى مبلغ خمسة الملايين من البارات في أواخر القرن الثامن عشر .

محرم رقم (٢)

تحليل تقريبي (١) لصافي استيلاء الطبقة الحاكمة على الاموال ومصادر تمويلها (٢) من واقع الميزانيات مكتملة البيانات (المبالغ بالآلاف الريالات)

م	١١٨٠ هـ / ١٦٧١ م	١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م	م
البيع %	البيع %	البيع %	مهمية / ميلادية
مصادر التمويل			
٩٨,٧١٠,٧١٢	٨٦,٣	٧٦,٩٧٠	١ - التدفق المالي من المقاطعات
(٤,٩١٦)(٤,٨)	(٧,٤)(٦,٦٤٤)		٢ - ناقص : نفقات على أغراض في مصر
صافي التدفق المالي من			
٩٣,٩٩٥,٧٩٦	٧٨,٩٧٠,٣٢٦		الوارد الانتاجية
٦,١٦,٢٠٨	٢١,١١٨,٨٣٥		٣ - مال الجرائ والايرادات المتروكة
١٠٠,٠١٠,٢٠٠	١٠٠,٠٨٩,١٦١		صافي مصادر التمويل

صافي التدفق المالي الى

الطبقة الحاكمة

٤ - الأجرور والمرئيات	٦٣,٣٥٦,٤٣٨	٦٣,٢٦٤,٤٨٥
والمعاشات	٣,١	٢,٥٤٤
٥ - مصروفات الباب العالي	٢,٨٠٢	٢,٥٤٤
٦ - الارشالية السنوية	٢٢,٩٢٠,٣٦٣	٢٤,٦٢٥,٠٦٨
إجمالي التدفق المالي الى الطبقة الحاكمة	٨٩,٣٧٩,٦٠٣	٩٠,٣٩٢,٠٩٧
٧ - ناهض : الكشوفية الكبيرة والخلوان	-	(١٦,٧) (١٧,٠٦٢)
صافي التدفق المالي الى الطبقة الحاكمة	٨٩,٣٧٩,٦٠٣	٧٣,٦١٧٥,٠٣٥
٨ - الفائض من مصادر التمويل : نفقات الحج والأراضي المقدسة	١٠,٧ ٩,٥٥٨	٢٦,٤٢٦,٩٦٩

تابع الجدول رقم (٢)
 المبلغ بالآلاف البارات

المرسئ	المرسئ	١٧٩٥ / ١٢٠٩		١٧٨٥ / ١٢٠٠		مصرفة / مولادة
القرن ١٨	المأم	%	%	المبغ	%	
%	%	%	%	المبغ	%	مصادر التمويل
٩٩,٦	٩٦,٣	٩٨,٤	٩٦,٣٣٢	١٠١,٩	١٠٨,٥٨٤	١ - التدفق المالى من المناطعات
(٥,٢)	(٥,٨)	(٥,٢)	(٥,١٣٢)	(٦,٠)	(٦,٤١٧)	٢ - نائف : نائف على
٩٤,٤	٩٠,٥	٩٣,٢	٩١,٢١٠	٩٥,٩	١٠٢,١٦٧	مصادر التدفق من الموراء الاناجية
٥,٦	٩,٥	٦,٨	٦,٧٠٤	٤,١	٤,٤٢٣	٣ - صائف الموراء والايرادات
١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	٩٧,٩١٤	١٠٠,٠	١٠٦,٥٩٠	صائف مصادر التمويل

المرتب	المرتب	١٢٠٩ / ٥ / ١٧٩٥ م		١٢٠٠ / ٥ / ١٧٨٥ م		معمارية / مبلادية
القرن ١٨	العام	%	المبلغ	%	المبلغ	
٢٩,٦	٢٨,٠	٣١,٤	٣٠,٧٣٥	٣٣,٠	٣٥,١٧٦	صالح التدقيق الى الطبقة الحاكمة ٤ - الأجور والرتب والمناش ٥ - مصروفات الباب العالي ٦ - الإرسالية السنوية
١,٥	١,٩	١,٠	٩٧٥	٠,٩	٩٩٠	
٥٧,٣	٥٨,٨	٥٤,٢	٥٣,١١١	٥٤,٥	٥٨,١٣٧	
٨٨,٤	٨٨,٧	٨٦,٦	٨٤,٨٢١	٨٨,٤	٩٤,٣٠٣	إجمالي التدقيق الى الطبقة الحاكمة ٧ - ناقص : الكثرية الكبيرة والطيران
(١٦,٦)	(١٢,٥)	(١٧,٢)	(١٦,٨٦٣)	(١٦,٠)	(١٧,٠٩١)	
٧١,٨	٧٦,٢	٦٩,٤	٦٧,٩٥٨	٧٢,٤	٧٧,٢١٢	صالح التدقيق الى الطبقة الحاكمة
٢٨,٢	٢٣,٨	٣٠,٦	٢٩,٩٥٦	٢٧,٦	٢٩,٣٧٨	٨ - الفائض من مصادر القبول : تفتات السج والأراضي المقدسة

هوامش الجدول رقم (٢)

- ١ - التحليل المبين في هذا الجدول هنا تحليل تقريبي لأنه يصنف ما استولت عليه الطبقة الحاكمة من موارد مالية طبقاً لما تدلنا عليه مسميات البنود الموضحة في الجدول رقم (١) ، ولا يتطرق الى تحليل تلك المسميات الى جزئيات أكثر تفصيلاً ، وذلك لالتزامنا هنا أن نقدم التحليل من واقع ماورد في الميزانيات فحسب . وفي الجدول رقم (٣) نخطو خطوة أبعد فنحاول استنباط ميزانية تقديرية نبينها ونحلل جزئياتها فيما يلي ذلك من جداول طبقاً للمستفيدين الفعليين من كل بند من بنود الانفاق وبغض النظر عن المسمى الأصلي لذلك البند .
- ٢ - التصنيف الموضح أعلاه يعيد ترتيب الإيرادات والنفقات ، فيسعى الى بيان صافي مصادر التمويل من جهة (أى الإيرادات من المقاطعات ومال الجوالى والمصادر المتنوعة بعد خصم ما يعاد انفاقه منها على الموارد الانتاجية) وصافى استخداماتها من جهة أخرى (أى الانفاق على الطبقة الحاكمة وعلى الأغراض الدينية بعد خصم مادفعته تلك الطبقة من ضرائب ورسوم الى الخزانة العامة) . والنسب المئوية للأنصبة منسبة الى صافى مصادر التمويل طبقاً للمبين في الجدول أعلاه ، وليس الى إجمالى الإيرادات أو الاستخدامات المبينة في الجدول رقم (١) .

الجدول رقم (٣)
تقدير ^(١) للإيرادات والمصروفات في سنوات مختارة ^(٢)
(المبلغ بآلاف اليارات)

مصدرية / ميلادية	١٠٨٢ هـ / ١٦٧١ م	١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م
المبلغ %	المبلغ %	المبلغ %
مصادر الأموال :		
١ - المقاطعات الزراعية	٦٧,٠ ٦٥,٢٩٩	٦٣,٨ ٦٧,٠٥٦
٢ - المقاطعات البحرية	١٠,٤ ١٠,١٥٧	١٢,٠ ١٢,٥٥٧
٣ - المقاطعات الحضرية		
والأخرى	٣,٣ ٣,٢٠٢	١,٧ ١,٨١٠
إجمالي إيرادات المقاطعات		
(مال الخراج)	٧٨,٦٥٨ ٨٠,٧	٨١,٤٢٣ ٧٧,٥
٤ - الكنوزية الكبيرة		
والملوك	-	١٦,١٤١ ١٥,٤
٥ - مال الجوالي	١,٢٠ ١,٢	١,٨٥٣ ١,٨

م ١٦٩٥/هـ ١١٠٧	م ١٦٧١/هـ ١٠٨٢	مصرية / ميلادية
البلغ %	البلغ %	
٥,٣	١٨,١	١ - إيرادات متنوعة
١٠٠,٠١٥,٠١٧	٩٧,٤٩٣	إجمالي الإيرادات
٥٨,٩	٥٧,٩	استخدام الأموال : ٧ - الأجور والمرتبات والمساهمات ٨ - نفقات الحج والأراضي المقدسة ٩ - نفقات على أغراض في مصر ١٠ - مصروفات الباب العالي
١٣,٤	١٠,١	
٤,١	٦,٢	
٢,٤	٢,٥	
٧٨,٨	٧٦,٧	
٨٢,٦٩١	٧٤,٧٨٣	إجمالي المصروفات

١١ - فائض الإيرادات عن
المصروفات (الارشالية السنوية) ٢٢,٧١٠ ٢٣,٣ ٢٢,٣٢٦ ٢١,٢

١٢ - إجمال الاستخدمات	٩٧,٤٩٣	١٠٠,٠	١٠٥,٠١٧	١٠٠,٠
-----------------------	--------	-------	---------	-------

تابع الجدول رقم (٣)
تقدير (١) للايرادات والمصروفات في سنوات مختارة (٢)
(المبالغ بالآلاف البرات)

مصرية / ميلادية	١١٣٠	١٧١٧/هـ	١١٥٥	١٧٤٢/هـ
-----------------	------	---------	------	---------

المبلغ	%	المبلغ	%
--------	---	--------	---

مصادر الأموال :

١ - القامطات الزراعية	٧١,٧٩٧	٦٤,٦	٧٤,٢٣٥	٦٥,٠
٢ - القامطات البحرية	١١٣,٤٦٩	١٢,١	١٤,٤٥١	١٢,٦
٣ - القامطات البحرية والأخرى	٢,٣٠١	٢,١	١,٩٥٤	١,٧

<p>٧٩,٣ ٩٠,٦٤٠ ١٤,٠ ١٦,٠٠٢ ١,٧ ١,٩١٦ ٥,٠ ٥,٦٦٣</p>	<p>٧٨,٨ ٨٧,٥٦٧ ١٤,٥ ١٦,١٤١ ١,٧ ١,٨٥٣ ٥,٠ ٥,٥٦٢</p>	<p>إجمالي الإيرادات المقاطعات (مال الجراج) ٤ - الكثرية الكيرة والجوان ٥ - مال الجوال ٦ - إيرادات متنوعة</p>
<p>١٠٠,٠ ١١٤,٢٢١</p>	<p>١٠٠,٠ ١١١,١٢٣</p>	<p>إجمالي الإيرادات</p>
<p>٥٢,٥ ٥٩,٩٢٤ ١٤,٩ ١٧,٠١٢ ٤,٩ ٥,٥٥٧ ١,٦ ١,٨٣٩</p>	<p>٥٥,٩ ٦٢,١٠٧ ١٣,٥ ١٤,٩٦٦ ٤,٩ ٥,٤٥٨ ١,٧ ١,٨٣٩</p>	<p>إستخدام الأموال : ٧ - الأجور والمرتبات والمشتات ٨ - نفقات الحج والأراضي المقدسة ٩ - نفقات على أغراض في مصر ١٠ - مصروفات الباب العالي</p>
<p>٧٣,٩ ٨٤,٣٣٢ ٢٦,١ ٢٩,٨٨٩</p>	<p>٧٦,٠ ٨٤,٣٧٠ ٢٤,٠ ٢٦,٧٥٣</p>	<p>إجمالي المصروفات ١١ - فائض الإيرادات عن المصروفات (الإرسالية السنوية)</p>
<p>١٠٠,٠ ١١٤,٢٢١</p>	<p>١٠٠,٠ ١١١,١٢٣</p>	<p>١٢ - إجمالي الاستعدادات</p>

تابع الجدول رقم (٣)
تقدير (١) اللايرادات والصروفات في سنوات مختارة (٢)
(المبالغ بالآلاف الريالات)

مصرفية / ميلاادية	١١٧٤ هـ / ١٩٥٠ م	١١٨٠ هـ / ١٩٦٦ م
المبلغ	%	% المبلغ
مصادر الأموال :		
١ - المقاطعات الزراعية	٨١,٣٠٣	٦٥,٥
٢ - المقاطعات البحرية	١٥,٣٢٧	١٢,٤
٣ - المقاطعات البحرية والأخرى	٢,٦٩٠	٢,٢
إجمالي إيرادات المقاطعات (مال الخراج)	٩٩,٣٢٠	٨٠,١
٤ - الكشوفية الكبيرة والطيران	١٧,٠٦١	١٣,٧
٥ - مال الجوالى	٢,٠٠٤	١,٦

٣,٠ ٣,٧٤٧	٤,٦ ٥,٧٥١	٦ - إيرادات متروحة
١٠٠,٠ ١٢٥,٠٠٩	١٠٠,٠ ١٢٤,١٣٦	إجمالي الإيرادات
٤٧,٨ ٥٩,٧٤٣	٤٧,٥ ٥٩,٠١٨	إستخدام الأموال : ٧ - الأجرور والرتبات والمباشرات ٨ - نفقات الملح والأراضي المقدسة ٩ - نفقات على أغراض في مصر ١٠ - مصروفات الباب المالي
٣١,١ ٣٦,٤١٧	٣٠,٣ ٣٥,٠٢٠	
٣,٩ ٤,٩٠١	٤,١ ٥,٠٦٩	
٣١ ٣,٥٤٤	١,٥ ١,٨٣٩	
٧٤,٩ ٩٣,٦٠٥	٧٣,٣ ٩٠,٩٤٦	إجمالي المصروفات
٢٥,١ ٣١,٤٠٤	٢٦,٧ ٣٣,١٩٠	١١ - فائض الإيرادات من المصروفات (الإرسالية السنوية)
١٠٠,٠ ١٢٥,٠٠٩	١٠٠,٠ ١٢٤,١٣٦	١٢ - إجمالي الاستخدامات

تابع الجدول رقم (٣)
(المبلغ بالآلاف ليرات)

مصرية / ميلادية	١٧٨٥ م / ١٢٠٠ هـ	١٧٩٥ م / ١٢٠٩ هـ	البيع %	البيع %	الفرس الجزائريات القرن ١٨	الفرس العام	%	%
مصادر الأموال :								
١ - المقاطعات الزراعية	٨٤,٣٢٦	٦٦,٩	٧٨,٩٢٧	٦٦,٣	٦٦,٥	٦٥,٨	١٢,١	١٢,٤
٢ - المقاطعات البحرية	١٥,١٧٦	١٢,٥	١٥,١٧٦	١٢,٨	١٢,٤	١٢,١	٢,١	٢,٥
٣ - المقاطعات الحضرية والأخرى	٢,٤٢٠	١,٩	٢,٢١٦	١,٩	٢,٥	٢,١	١,٦	١,٦
إجمالي إيرادات المقاطعات (مال الخراج)	١٠١,٩٢٢	٨٠,٨	٩٦,٣٢٩	٨١,٥	٨١,٥	٨٠,٥	١٢,٤	١٢,٨
٤ - الكثيرة الكبيرة والخوان ٥ - مال التجار	١٧,٤٦٣	١٣,٩	١٦,٨١٣	١٤,٢	١٣,٨	١٢,٤	١,٦	١,٦

٣,٦	٦,٠	٣,١	٣,٧٤٧	٣,٧	٤,٦٤٥	٦ - إيرادات متنوعة
١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١١٨,٩٨٨	١٠٠,٠	١٢٦,٠٤٩	إجمالي الإيرادات
٤٦,٥	٥١,٤	٤٤,٦	٥٣,١١١	٤٦,١	٥٨,١٣٧	استخدام الأموال : ٧ - الأجور والمرتبات والمعاشات ٨ - نفقات الحج والأراضي المقدسة ٩ - نفقات على أغراض في مصر ١٠ - مصروفات الباب العالي
٢٣,٤	١٨,٢	٢٧,٨	٣٣,٠٣٥	٢٤,٣	٣٠,٦٦١	
٤,٤	٤,٧	٤,٦	٥,٤٢٣	٥,١	٦,٤٠١	
١,٣	١,٧	٠,٧	٨١٥	١,٠	١,٢٤٣	
٧٥,٦	٧٦,٠	٧٧,٧	٩٢,٣٨٤	٧٦,٥	٩٦,٤٤٢	
٢٤,٤	٢٤,٠	٢٢,٣	٢٦,٦٠٤	٢٣,٥	٢٩,٦٠٧	إجمالي المصروفات ١١ - فائض الإيرادات عن المصروفات (الإرسالية السنوية)
١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١١٨,٩٨٨	١٠٠,٠	١٢٦,٠٤٩	١٢ - إجمالي الاستدامات

هوامش الجدول رقم ٣

١ - أقمنا تقديراتنا للإيرادات والمصروفات على أساس منهج نلخصه فيما يلي :

أولاً : التعرف على الجزئيات المكونة لكل من البنود المذكورة في الميزانيات مكتملة البيانات .

ثانياً : تتبع البيانات التاريخية المتأثرة المتوفرة عن كل عنصر جزئى على حدة للتعرف على ما طرأ من تغيير فيه ، واستخدام ذلك للتبع التاريخى للتوصل الى تقديرات منفصلة لكل عنصر جزئى بحيث يتكون من مجموع تلك التقديرات الجزئية تقديرنا لاجمالى البند المكونة له .

ثالثاً : فى حالة عدم تمكننا من تتبع العناصر الجزئية بالكيفية الموضحة فى الفقرة السابقة ، حاولنا استنباط علاقات بين العناصر الجزئية بعضها البعض وأو بينها وبين البنود الاجمالية التى يدخل كل منها فيها ، واستخدمنا تلك التقديرات المستنبطة فى تقدير إجمالى كل بند من بنود الميزانية .

وقد حاولنا الاستدلال على مدى صلاحية التقديرات المبينة على المنهج السابق كمؤشرات تقريبية لهيكل الميزانية ، فقمنا باستخدام نفس ذلك المنهج فى بناء تقديرات للإيرادات والمصروفات فى الأعوام مكتملة البيانات والتى أوردنا ميزانياتها فى الجدول رقم (١) . ويمكن للقارئ المقارنة بين ما توصلنا اليه من تقديرات لتلك السنوات باستخدام المنهج الموضح هنا وبين الأرقام الفعلية للموازنة المبينة فى الجدول رقم (١) .

٢ - خمس من السنوات الثماني المختارة هنا قد اختبرت باعتبار كل منها أول سنة مالية تعقب محاولة « إصلاح مالى » عثمانى للخزانة المصرية . إذ جرت خمس محاولات عثمانية على الأقل لاعادة ترتيب إيرادات الخزانة المصرية ومصروفاتها فى السنوات ١٦٧٠ ، ١٦٩٥ ، ١٧٤٢ ، ١٧٦١ ، ١٧٦٦ ، ١٧٦٧ (أنظر التقديم المتصدر لهذا الملحق) ، وكان الدافع المحرك وراءها كلها تدبير الوسائل لتحقيق كامل الفائض السنوى المستهدف (الارسالية) والذى زيد من ستة عشر مليون بارة عند تأسيسه الى عشرين مليوناً فى ١٥٩٦ ثم أربعة وعشرين مليوناً فى ١٦٠١ ثم تراوح بين عشرين مليوناً وثلاثين مليوناً فيما بعد . وفى السنوات

ماين تلك المحاولات ، كان الهيكل العام للموازنة يظل ثابتاً في مجمله وكذلك
الايادات المستهدفة والاعتمادات المحددة للنفقات ، ومن هنا فقد كان من المقبول
اختيار السنوات التي اعقبت تلك المحاولات مباشرة كحدود فاصلة وكمؤشر
تقديري لتطور هيكل الموازنة على مدى الفترة محل الدراسة .

وقد توفرت لدينا أيضاً بيانات كافية عن أعوام ١٧١٧ و ١٧٨٥ و ٦ - ١٧٩٥
بصورة مكنتنا من بناء تقديرات للايادات والمصروفات فيها .

جدول رقم (٤)
تصنيف المستفيدين^(١) من الأموال من واقع الممرورات في سنوات مختارة
(نسب مئوية)

مصرية - ميلادية	١٦٧١ /	١٦٩٥	١٧١٧	١١٣٠	١١٥٥.	١١٧٤-٥ ١٧٦٠-١
الأجور والمرتبات والعاجات :						
١ - الطبقة الحاكمة	٥٧,٩	٥٨,٩	٥٥,٩	٥٢,٥	٤٧,٥	
نفقات الطبخ والأراضي القدسية :						
١ - الطبقة الحاكمة	١,٠	٣,٦	٣,٠	٣,٦	٩,٠	
٢ - الاستخدامات الدينية	٩,١	٩,٨	١٠,٥	١١,٣	١١,٢	
الإجمالي	١٠,١	١٣,٤	١٣,٥	١٤,٩	٢٠,٢	
نفقات على أغراض في مصر ^(٢)						
١ - الطبقة الحاكمة	٤,٣	٢,٣	٣,٢	٣,٢	٢,٦	
٢ - الاستخدامات الدينية	٠,٩	٠,٨	٠,٧	٠,٧	٠,٦	

٠,٩ ٤,١	١,٠ ٤,٩	١,٠ ٤,٩	١,٠ ٤,١	١,٠ ٦,٢	٣ - الماراد الانتاجية الاجمالى
١,٥ ٢٥,٠ ١,٧	١,٦ ٢٥,٠ ١,١	١,٧ ٢٣,٣ ٠,٧	٢,٤ ١٥,٧ ٥,٥	٢,٥ ١٧,٣ ٦,٠	مصرفات الباب المعالى ١ - الطبقة الحاكمة الارسالية السنوية : ١ - الطبقة الحاكمة ٢ - الاستخدامات الدينية
٢٦,٧	٢٦,١	٢٤,٠	٢١,٢	٢٣,٣	الاجمالى
٨٥,٦ ١٣,٥ ,٩	٨٥,٩ ١٣,١ ١,٠	٨٧,١ ١١,٩ ١,٠	٨٢,٩ ١٦,١ ١,٠	٨٣,٠ ١٦,٠ ١,٠	تليخيص عام الاستخدامات طبقاً للمستفيدين ^(٢) ١ - الطبقة الحاكمة ٢ - الاستخدامات الدينية ٣ - الماراد الانتاجية
١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	الاجمالى

تصنيف المستفيدين^(١) من الأموال من واقع المصروفات في سنوات مختارة
تابع الجدول رقم (٤)
(نسب مئوية)

المتوسط للأخير من القرن ١٨	المتوسط للمام ١٧٩٥-٦	/١٢٠٩	/١٢٠٠	/١١٨٠
٤٦,٥	٥١,٤	٤٤,٦	٤٦,١	٤٦,٨
الأجور والبرجات والمعاشات :				
١ - الطبقة الحاكمة				
نفقات الميخ والأراضي				
المقدسة :				
١ - الطبقة الحاكمة				
٩,٥	٦,١	١١,٤	٨,٧	٨,٨
٢ - الاستخدمات الدينية				
١٣,٩	١٢,١	١٦,٤	١٥,٦	١٢,٣

الترتيب	الترتيب	١٢٠٩ /	١٢٠٠ /	١١٨٠ /	
للتصنيف	المجموع	١٧٩٥-٦	١٧٨٥	١٧٦٦	
القرن ١٨					
٠					تفقات على أعراض في مصر (٧) :
٢,٩	٣,١	٣,١	٣,٦	٢,٤	١ - الطبقة الحاكمة
٠,٦	٠,٧	٠,٦	٠,٦	٠,٦	٢ - الاستخدمات الدينية
٠,٩	٠,٩	٠,٩	٠,٩	٠,٩	٣ - الموارد الانتاجية
٤,٤	٤,٧	٤,٦	٥,١	٣,٩	الاجمالي
١,٣	١,٧	٠,٧	١,٥	٢,١	معروفات الباب العالي
٢٣,١	٢١,٧	٢١,٥	٢٢,٣	٢٣,٩	١ - الطبقة الحاكمة
١,٣	٢,٣	١,٣	١,٢	١,٢	الاربابية السنية :
					١ - الطبقة الحاكمة
					٢ - الاستخدمات الدينية
٢٤,٤	٢٤,٥	٢٢,٣	٢٣,٥	٢٥,١	الاجمالي

التوسط	التوسط	١٢٠٩ /	١٢٠٠ /	١١٨٠ /
النصف	النصف	١٧٩٥ - ٦	١٧٨٥	١٧٦٦
الأخير من				
القرن ١٨				

١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١٠٠٠٠
٨٣,٥	٨٤,٠	٨٠,٨	٨١,٧
١٥,٨	١٥,١	١٨,٣	١٧,٤
٠,٩	٠,٩	٠,٩	٠,٩
١٤,١	٠,٩		

١ - الطبقة الحاكمة
٢ - الاستخدامات
٣ - الدينية
٢ - المولد الانتاجية
الاجمالي

هوامش الجدول رقم ٤

- ١ - قمنا هنا بتفتيت كل بد من بنود الانفاق الى عناصره الجزئية المكونة له ، ثم صنفنا المستفيد الفعلي من كل من تلك العناصر (قارن ذلك بالتصنيف الموضح في الجدول رقم (١) والذي علقنا عليه في الهامش المذيل لذلك الجدول) .
- ٢ - من بين ما اعتبرناه انفاقاً من ذلك البند على الطبقة الحاكمة ما يلي على سبيل المثال :
المدفوعات الى العسكر من فرقتي الشاويشية والمتفرقة عند قيامهم بجبي الضرائب من الأرياف وهى مدفوعات ثاجة لم تدخل ضمن بند الأجور وعرفت بمصطلح « تذاكر شاويشية » ، والمؤن العينية التى صرفت لأتباع الطبقة الحاكمة ولاستهلاك دواب الأمراء والولاة . ومن بين ما اعتبرناه انفاقاً على أغراض دينية ما يلي : المعاشات التى دفعت فى القاهرة والقدس ودمشق لعلماء الدين وللقائمين على المساجد ، وكذلك الانفاق على المؤن الغذائية والسلع المشحونة الى المدينتين الأخيرتين . أما ما اعتبرناه انفاقاً على الخدمات والاستثمارات العامة فتركز فى مد المدن الساحلية بمياه العذبة ، وصيانة بيوت الجمارك بها ، وصيانة الخللجان والسواقى والقنوتات الامبراطورية والسلود ومقياس النيل والمدفوعات الى القائمين على كل تلك الخدمات والأنشطة .
(Shaw, The Financial....., 232-235)
- ٣ - نلاحظ هنا أنه بينما استولت الطبقة الحاكمة فى مجموعها على كامل النفقات الموجهة للأجور والمرتبات والمعاشات ولمصروفات الباب العالى (بغض النظر عن الجناح الأكثر سيطرة ومن ثم الأكثر استيلاء على الموارد المالية) ، فقد توزعت نفقات الحج والأراضى المقدسة وكذلك الارسالية السنوية بين أفراد من تلك الطبقة وبين أغراض دينية مختلفة ونلاحظ هنا أننا نستخدم تعبير « الطبقة الحاكمة » بمعنى يشمل معاونيها أيضاً باعتبار أن الانفاق على هؤلاء ضرورى لصيانة النظام القائم وبالتالى فهو لفائدة الطبقة الحاكمة ، كذلك فالأغراض الدينية التى وجهت النفقات اليها كانت شكلية الطابع فى أغلب الأحيان ، وقد أوردنا هاتين الملاحظتين فى متن فصول الدراسة . ومن ناحية أخرى ، فقد تحولت النسبة العظمى من النفقات التى ظهرت فى الأصل تحت مسمى « أغراض فى مصر » الى هاتين الناحيتين بينما اقتصر الانفاق على الخدمات والاستثمارات العامة على نسبة محدودة من ذلك البند وضئيلة للغاية من اجمالى الانفاق .

مترق / ملاقه	١٩٠٨	١٩٠٩	١٩١٠	١٩١١	١٩١٢
١٧٤٢	١٧٤٣	١٧٤٤	١٧٤٥	١٧٤٦	١٧٤٧
١٧٤٨	١٧٤٩	١٧٥٠	١٧٥١	١٧٥٢	١٧٥٣

٢) معاميل التصحيح				
مصادر التحويل :				
١ - التدفق المالي من				
القطاعات (ماله الخارج)				
٢ - ناتج : صفات النفقات				
على الموارد الانتاجية				
١,١٧١	١,١٧٦	١,١٨٣	١,١٩٦	١,٠٢٠
٩٣,٨	٩٣,٣	٩٣,٢	٩٢,٧	٨٢,٣
(١,١)	(١,٢)	(١,٢)	(١,٢)	(١,٠)
٩٢,٧	٩٢,١	٩٢,٠	٩١,٥	٨١,٣
صافي التدفق المالي من الموارد الانتاجية				

مصرية ميلادية				
١٠٨٢	١١٠٧	١١٣٠	١١٥٥	- ٥
١٦٧١	١٦٩٥	١٧١٧	١٧٤٢	١١٧٤
				- ١
				١٧٦٠
٣ - مال الجبال والابواب				
١٩,٧	٨,٥	٨,٥	٧,٩	٧,٣
المتروعة				
١٠٠,٥ : ١٠٠,٥ : ١٠٠,٥ : ١٠٠,٥ : ١٠٠,٥				
صافي مصادر التمويل				
صالح التدقيق المالي الى الطيقة				
الحاكمية :				
٥٩,١	٧٠,٤	٦٦,١	٦١,٧	٥٥,٦
٤ - من الأجر والبركات والمهمات				
١,٥	٤,٣	٣,٥	٤,٣	١٠,٥
٥ - من نفقات الحج والأراضي المقدسة				
٤,٤	٢,٨	٣,٨	٣,٨	٣,٠
٦ - من النفقات على أعراض في مصر				

مصرية / ميلادية				
- ٥	١١٥٥	١١٣٠	١١٠٧	١٠٨٢
١١٧٤				
- ١	١٧٤٢	١٧١٧	١٦٩٥	١٦٧١
١٧٦٠				
٧- من ممرؤات الباب				
١,٨	١,٩	٢,٠	٢,٩	١,٦
٢٩,٣	٢٩,٤	٢٧,٦	١٨,٨	١٧,٦
٨- من الارشالية السنوية				
إجمالي التدفق المالي الى الطبيعة				
١٠٠,٢	١٠١,٠	١٠٣,٠	٩٩,٢	٨٤,٧
٩- ناقص : الكثرية				
(١٦,٠)	(١٦,٤)	(١٧,١)	(١٨,٤)	-
الكيرة والطران				
صافي التدفق المالي الى الطبيعة				
٨٤,٢	٨٤,٦	٨٥,٩	٨٠,٨	٨٤,٧
١٠- ناقص من مصادر				
العمل : الاستخدامات				
١٥,٨	١٥,٤	١٤,١	١٩,٢	١٦,٣
الدينية				

(١) الأنصبة الثرية لصادر الأموال والمستفيدين منها مأخوذة الى صافي الدينق القدي من

(جسب مکتوبہ)

194

متجرية / ميلادية	١١٨٠	١٢٠٠	١٢٠٩ / المتوسط	المتوسط للتصنيف الأخير من القرن ١٨
٣ - ملل البترول والأبوانات البتروية	٥,٤	٦,٢	٥,٧	٨,٦
٦,٢				
١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠	١٠٠,٠
صافي مصادر التمويل				
صافي التدفق المالي الى الطبعة الحاكمة				
٤ - من الأجور والمرتبات والعقوبات	٥٥,٩	٥٤,١	٥٢,٥	٥٩,٤
٥ - من عقوبات الخبز والأراضي المقدسة	١٠,٣	١٠,٢	١٣,٤	٧,١
٦ - من المنعقات على أغراض في مصر	٢,٨	٤,٢	٣,٧٠	٣,٦
٢,٤				

القرن ١٨ الأخير من النصف	القرن ١٨ الأخير من النصف	القرن ١٨ الأخير من النصف	القرن ١٨ الأخير من النصف	القرن ١٨ الأخير من النصف	القرن ١٨ الأخير من النصف
١٨,٦	١٧,٣	٢١,٦	٢٠,٠٤	١٦,٤	١٠ - النافض من مصادر التحويل : الاستخدامات الدينية
٨١,٤	٨٢,٧	٧٨,٤	٧٩,٦	٨٣,٦	٩ - ناقص : الكثيرة الكثيرة والعثرات صافي التدفق المالي إلى الطبقة الحاكمة
٩٧,٦	٩٧,٠	٩٥,١	٩٥,٩	٩٩,٥	٩ - ناقص : الكثيرة الكثيرة والعثرات صافي التدفق المالي إلى الطبقة الحاكمة
١٠٥	١٠٩	١٠٨	١٠٢	١٠٥	٨ - من الإرسالية السنوية المالي
٢٧,١	٢٥,٠	٢٤,٧	٢٦,٣	٢٨,٠	٧ - من مصروفات الباب المالي

هوامش الجدول رقم (٥)

- ١ - إعتدنا على أنصبة مصادر الأموال المبينة في الجدول رقم (٣) في تقدير الأنصبة لصافي مصادر التمويل وللكشفية الكبيرة والخلوان ، وعلى التصنيف التحليل للاستخدامات المبينة في الجدول رقم (٤) في تقدير الأنصبة النسبية لصافي التدفق المالى الى الطبقة الحاكمة والى الاستخدامات الدينية والى الموارد الانتاجية .
- ٢ - معامل التحويل نسبة مأخوذة الى الواحد . نلاحظ أن النسب المبينة في الجدولين (٣ و ٤) مأخوذة الى اجمالى الايرادات والاستخدامات . وحث أن الجدول رقم (٥) أعلاه يسعى الى قياس الأنصبة مأخوذة الى صافي مصادر التمويل ، فقد قمنا بقياس النسبة العددية بين اجمالى الايرادات وصافي مصادر التمويل وضررنا تلك النسبة فى الصبيب المئوى المبين فى الجدول رقم (٣) بالنسبة لمصادر التمويل وللكشفية الكبيرة والخلوان ، وذلك المبين فى الجدول رقم (٤) بالنسبة للتدفق الى الطبقة الحاكمة والاستخدامات الدينية والى الموارد الانتاجية ، فتوصلنا بذلك الى نسب المصادر والاستخدامات مأخوذة الى صافي مصادر التمويل بدلاً من اجمالى الايرادات .

قائمة المراجع

أولاً : المصادر الأصلية

أ - باللغة العربية

- ١ - الجبرقي ، عبدالرحمن : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت : دار الفارس ، ١٩٧٠ .
- ٢ - الجبرقي ، عبدالرحمن : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، تحقيق وشرح حسن جوهر وعبدالفتاح السرنجاوي-والسيد ابراهيم وعمر الدسوقي ، سبعة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٨ - ١٩٦٦ .

ب - باللغة الأجنبية

- ٣ - **Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution: A Report by Huseyn Efendi, translated from the Original Arabic.** Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1964.
- ٤ - **Ottoman Egypt in the Eighteenth Century: The Nizamname-i Misir of Cezzar Ahmed Pasha.** Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1962.
- ٥ - **Sonnini, C.S.: Travels in Upper and Lower Egypt tr. H. Hunter.** London : John Stockdale, 1799.

ثانياً : المصادر الثانوية

أ - باللغة العربية

- ٦ - أنيس ، محمد أحمد : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٥ .

- ٧ - جرجس ، فوزى : دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى ،
القاهرة : الدار المصرية ، ١٩٥٠ .
- ٨ - الرفاعى ، عبدالرحمن : تاريخ الحركة القومية ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ،
١٩٢٩ .
- ٩ - رمضان ، محمد رفعت : على بك الكبير ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، غير مؤرخ
(التصدير مؤرخ فى ١٩٥٠) .
- ١٠ - الشرفاوى ، محمود : مصر فى القرن الثامن عشر دراسات فى تاريخ الجبروتى ، ثلاثة
أجزاء ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .
- ١١ - لمطة ، محمد فهمى : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٤٦ .

ب - باللغة الأجنبية

- ١٢ - Baer, Gabriel, "Guilds in Middle Eastern History" in
Studies in the Economic History of the Middle East ed.,
M.A. Cook. London: Oxford University Press, 1970, 11-30.
- ١٣ - Crecelius, D. "Non-ideological Responses of the Egyptian
Ulama to Modernization" in **Scholars, Saints and Sufis** ed.,
N. Keddie. Berkeley: University of California Press, 1972.
167-209.
- ١٤ - Crouchley, A.E. **The Economic Development of Modern
Egypt**. London-New York-Toronto: Longmans Green and
Co., 1938.
- ١٥ - Gibb, H.A.E. & Bowen H. **Islamic Society and the West**. 2
vols. London-New York-Toronto: Oxford University Press,
1950-57.
- ١٦ - Hourani, A.H. "The Islamic City in the Light of Recent
Research" in **The Islamic City** ed. A.H. Hourani & S.M.
Stern. Oxford: Bruno Cassirer, 1970.

Inalcik, Halil "The Ottoman Mind and Aspects of the Ottoman Economy" in **Studies of the Economic History of the Middle East** ed. M.A. Cook. London: Oxford University Press, 1970. 207-18. — ١٧

Kimche, David "The Political Superstructure of Egypt in the Late Eighteenth Century" **Middle East Journal** XXII iv (1968) 448-62. — ١٨

Raymond, Andre **Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe siècle**. Damascus: Institut Francais de Damas, 1973. — ١٩

Al-Sayyid Marsot, Affaf Lutfi "The Political and Economic Functions of the Ulama in the Eighteenth Century" **Journal of the Economic and Social History of the Orient** XVI (1973) 130-54. — ٢٠

"The Role of the Ulama in Egypt During the Early Nineteenth Century" in **Political and Social Change in Modern Egypt** ed., P.M. Holt. London: Oxford University Press, 1968. 264-80. — ٢١

Shaw, Stanford J. **The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798**. Princeton : Princeton University Press, 1962. — ٢٢

"Land holding and Land-tax Revenues in Ottoman Egypt" in **Political and Social Change in Modern Egypt** ed., P.M. Holt. London: Oxford University Press, 1968. 91-103. — ٢٣

Stern, S.M. "The Constitution of the Islamic City" in **The Islamic City** ed. A.H. Hourani & S.M. Stern. Oxford: Bruno, 1970. — ٢٤

المحتويات	صفحة
تقديم بقلم الدكتور جلال أمين	٩
تقديم الدراسة :	١٩
الفصل الأول :	
السيطرة على الثروة المصرية فى القرن الثامن عشر	٣٥
الفصل الثانى :	
إدارة الثروة : مدخل إلى العلاقات الطبقية	
والصراع الطبقي	٤٧
الفصل الثالث :	
الطبقة الحاكمة	٨٣
الفصل الرابع :	
الإخفاق التاريخى وضرب إمكانيات النهضة	١١٥
الخاتمة :	
إجتهد تاريخى لتفسير إخفاق الطبقة المتوسطة	
المصرية وظهور محمد على	١٤٧
ملحق : حركة التدفق المالى لايادات الخزانه ومصرفاتها	١٥١

عن الكاتب والكتاب

ينتمى كاتب هذا البحث إلى الجيل الذى ولد مع قيام ثورة ١٩٥٢ ، فتفتح وعيه فى مطلع الستينيات وعاصر ما تعرضت له البلاد من متغيرات جوهرية تزامن أهمها مع فترة دراسته الجامعية (١٩٧٠ - ١٩٧٧) ومع بدء انخراطه فى الحياة العملية بعد ذلك . أتم الكاتب دراسته الجامعية الأولى فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة (١٩٧٥) ثم حصل على درجة الماجستير فى الاقتصاد السياسى من جامعة تورنتو بكندا (١٩٧٧) . وقد عمل من وقتها فى الحقل المصرفى الانتائى فتقل بين عدة مؤسسات شملت البنك المصرى الأمريكى (١٩٧٨ - ١٩٨٢) وبنك باركليز البحرين (١٩٨٢ - ١٩٨٥) والمؤسسة العربية المصرفية بالبحرين (١٩٨٨ - ١٩٩٠) ، وتحللت تلك الفترة سنتان من التعاقد لمدة محدودة مع بضع مؤسسات أخرى كما تخللها حضوره دورة دراسية قصيرة فى تقيم وإدارة الاستثمارات فى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية (١٩٨٧) . وكان آخر ما تولاه الكاتب إدارة مديونية العالم الثالث لدى المؤسسة العربية المصرفية فى البحرين حتى عودته إلى مصر فى شهر نوفمبر الماضى .

أما البحث الذى بين يدي القارئ فهو كما يقول د . جلال أمين : « بحث ممتاز يتكلم عن فترة زمنية محدودة ، هى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وفى بلد واحد هو مصر ، ولكنه يرسم صورة شيقة للغاية وتنبض بالحياة ، لما يمكن أن يتعرض له مجتمع ساء الحظ من قهر حكامه والطبقة صاحبة السلطة فيه ، وكيف يؤدي ذلك بالضرورة إلى تعطيل النهضة وسوء الحال .



دار المستقبل العربى